روائع المسرح العالمى

١٠

شاترتون

مأساة من ثلاثة فصول

تأليف : ألفريد دى فينى

ترجمة : حسن نديم

مراجعة : عبد الحميد الدواخلى

تقديم : الدكتور محمد مندور

الجمهورية العربية المتحدة
وزارة الثقافة والإرشاد القومى
الإدارة العامة للثقافة

شاترتون

تأليف

الفريد دى ڤيني

ALFRED DE VIGNY

Chatterton

(drame)

المقدمة

بقلم

الدكتور محمد مندور

الفريد دى ڤينى مؤلف هذه المسرحية أحد كبار الشعراء الفرنسيين الرومانسيين ، ولكنه يمتاز عنهم جميعاً بأنه كان مفكراً أيضاً ، ولعله من قلائل الشعراء العالميين الذين استطاعوا أن يحولوا الفكرة إلى شعر ، مع الاحتفاظ بروح الشعر وجمال التصوير فيه ، حيث تستطيع الصورة أن تحمل الفكرة ولا تجفف الفكرة من جمال الصورة أو تثقلها .

والفلسفة الغالبة فى إنتاج الفريد دى ڤينى الشعرى والنثرى فلسفة متشائمة ، فهو يشكو شعور الإنسان بالوحدة فى قصيدته « موسى » ، وهو يرى أن الطبيعة لا تؤنسه ، بل تلقاه فى

فتور ساخرة من غرور حياته الفانية أمام عظمتها الخالدة ، بينما كان يرى فيها شاعر رومانسى آخر مثل لامارتين أمًّا حانية تسجل فى عطف آثار مرورنا العابر أمامها ، أمينة على خواطرنا الخفية ومعزية لآلامنا ، وذلك على نحو ما نستطيع أن نحسه من مقارنتنا بين قصيدة البحيرة للامارتين وقصيدة دى ڤينى الفذة « بيت الراعى » .

والفريد دى ڤينى يدعونا إلى أن نصرف بصرنا عن خلودها الجارح إلى المرأة الفانية الجمال ، ولكن المرأة بدورها قد تصبح لنا عدواً كما نطالع فى قصيدته « غضب شمشون » ، ولكى يتم الفريد دى ڤينى الصورة الحالكة التى يرسمها لمصير الإنسان ، نراه يصور هجران الإله نفسه لنا على نحو ما حدث للسيد المسيح ، عندما رفع أكف الضراعة إلى الله قبل صلبه على جبل الزيتون ، فلم يستجب الإله لضراعته فى قصيدة « جبل الزيتون » ، فهل يستطيع الإنسان بعد كل هذا أن يعتمد على قواه الخاصة مكتفيا بذاته ؟ هنا أيضاً يجيب دى ڤينى بالنفى فى قصيدته «الأقدار» حيث يصور الإنسان مكبلاً بأثقال القدر وقيوده الحديدية ، التى تبهظ كاهله ، بل إن ذكاءنا نفسه مقيد بضعفه على نحو ما نطالع فى قصيدة « الناى » . وفى النهاية هناك القيد الأكبر ، وهو الموت الذى يحلق فوق رءوسنا كسيف مسلول .

وهكذا تجتمع علينا فى نظر دى ڤينى — الوحدة والعجز ،

ومع ذلك فقد قضى علينا أن نعيش، ولكن كيف السبيل؟ ...
ويجيب دى ڤينى على هذا السؤال الأخير ؛ بأن سبيلنا إلى الحياة هو أن نخضع لواقعها مستجيبين لنداء العقل ، ولكن فى كرامة واعتزاز ، فلا نئن ولا نشكو لأحد ، بل نؤدى عملنا فى الحياة برجولة ، وعندما يأتى الموت فلنستقبله فى شجاعة رواقية على على نحو ما نقرأ فى قصيدته « موت الذئب » . ولكن شجاعتنا الرواقية أمام ما يصيبنا من الآلام يجب أن تصطحب بالشفقة على الآلام التى تصيب الغير ، على نحو ما توحى مسرحية « شاترتون » نفسها ، وعلى نحو ما توحى قصيدته « إيلوا » التى تصور دمعة تساقطت من عين المسيح ، فأصبحت رمزاً للرحمة التى تشمل جميع الآلام بعد أن تجسدت شخصاً ، وعلى نحو ما نراه يدافع عن الجندى فى كتابه « عظمة وعبودية الحياة العسكرية » . وديوان « الأقدار » كله لا تخلو صفحة منه من إعلان الشفقة بالضعفاء والمساكين كالشحاذ الفقير الذى كان يلعب على الناى ويصيبه اليأس فى قصيدة « الناى » والعبدة الشريدة بلا مأوى التى يتلقاها أحد المستعمرين بأمريكا فى قصيدة « المتوحشة » .

ومع ذلك فقد برق فى إنتاج الفريد دى ڤينى المتأخر بريق تفاؤل ساطع ، هو الأمل فى أن يختفى يوماً الشر من الأرض بفضل الفكر المنتصر فى بطء ، ولكن فى ثبات ، وهو الفكر الذى يؤمن باطراد التقدم ، وبذلك توج دى ڤينى تشاؤمه

بفكرة متفائلة ضخمة ، على نحو ما نحس فى قصيدة « الزجاجة فى اليم » .

وللتعبير عن هذه الآراء الفلسفية استطاع الفريد دى ڤينى أن يعثر على صورة تبعد بشعره عن هذا الطابع التعليمى التقريرى ، وعبر هو نفسه فى مقدمة أحد دواوينه عن هذا الطابع « بقوله » : « إن الميزة الوحيدة التى لم ينكرها أحد على مؤلفاتى ، هى أننى رائد هذا اللون الجديد من الفن فى فرنسا ، إذ لم يسبقنى أحد فى إبراز فكرة فلسفية فى قالب قصصى أو درامى » .

وهذا حق ، فهو أول شاعر فهم فى فرنسا أن الفكرة الفلسفية لا يجوز أن يعبر عنها تعبيراً تقريرياً تجريدياً ؛ بل يجب أن تحول إلى عاطفة بفضل الصورة الرمزية التى تجمع بين الخصوصية والعموم ، « فوسى » مثلا يمثل جميع الرجال الممتازين الذين يقضى عليهم امتيازهم نفسه بالوحدة ، و « إيلوا » تمثل جميع الأشخاص الذين يدفعهم شعورهم بالرحمة إلى التضحية . و « الذئب » الذى يموت فى صمت يمثل جميع الرجال ذوى العزم ، الذين يعرفون كيف يتقبلون الألم فى شجاعة وصمت . وهكذا تحتفظ أشعار ألفريد دى ڤينى بمعانيها الفلسفية ، دون أن تفقد قيمتها الفنية ؛ ولكن هذا النوع من الشعر لا يمكن صاحبه من الغزارة فى الإنتاج ؛ وذلك لأنه يتطلب مصادفات سعيدة فى العثور على الصورة

التى تستطيع أن تحمل الفكرة ، ومثل هذه المصادفات بالغة الندرة ، ولذلك لم يغزر إنتاجه ، وكل ذلك فضلا عن صعوبة الجمع فى كل موحد بين الرمز أى الصورة الخاصة ، والفكرة العامة ، فالصورة قد لا تبرز الفكرة ، والفكرة قد تعمى الصورة .

حياته ومغزاها

وفلسفة الفريد دى ڤيني المتشائمة نستطيع تفسيرها على ضوء حياته ، فقد ولد دى ڤيني سنة ١٧٩٧ بمدينة لوش فى مقاطعة التورين بغرب فرنسا ، ولكنه لم ينشأ بها ؛ إذ لم يلبث أبوه وأمه أن انتقلا به بعد سنتين من ميلاده إلى باريس ، وقد كان الفريد الطفل الوحيد لوالديه من بين ثلاثة عاجل الموت اثنين منهما ، وكان أبوه من النبلاء ، وإن يكن دى ڤيني قد بالغ فى حديثه عن عراقة هذه النبالة ، ولما كان أبوه ضابطاً فى الجيش الملكى ، فقد كان يحدث ابنه دائماً عن حياة الجندية مع ما فيها من عظمة ومخاطرة حتى إذا شب الطفل والتحق بإحدى مدارس باريس ، كان نابليون قد وصل إلى أوج عظمته الحربية التى خطفت أبصار جميع الشبان عندئذ ، وولدت فيهم الطموح إلى المجد الحربى ، ولذلك نرى دى ڤيني يعرض بعد فراغه من الدراسة الثانوية عن الالتحاق بمدرسة الهندسة الشهيرة

بباريس ، وفضل أن ينضم إلى الجيش كضابط لكى يشبع طموحه إلى المجد الحربى ، الذى وصف كيف تولد فى نفسه ونفس غيره من شبان العصر فى كتابه « عظمة وعبودية الحياة العسكرية » بقوله : « حوالى نهاية العصر الامبراطورى كنت تلميذاً شارد اللب فى المدرسة ، وكانت الحرب قائمة فى المدرسة ، وصوت البوق يطغى فى أذنى على صوت المدرسين ، وصوت الكتب الهامس لا يتحدث إلينا إلا بلغة باردة متفيقهة ، واللوغاريتمات وأوجه البلاغة لم تكن فى أعيننا غير درجات من السلم الذى يقود إلى نجمة « اللوجيون دونير » أجمل نجوم السماء عند الأطفال ولم يكن أى تأمل فكرى يستطيع أن يسحر لوقت طويل رءوساً تطن فيها باستمرار طلقات المدافع ، ودقات الأجراس ، وعندما كان يظهر أمامنا أحد إخواننا الذين تركوا المدرسة منذ أشهر وهو مرتد بذلة الفرسان ، وذراعه معلق فى ضماد كنا نخجل من كتبنا ، ونرميها فوق رءوس مدرسينا ، بل إن هؤلاء المدرسين لم يكونوا ينسون أن يقرأوا لنا باستمرار بلاغات الجيش الكبير ، وكانت صيحاتنا : « يحيا الإمبراطور » تقطع خط تفكير المؤرخ « تاسيت » والفيلسوف « أفلاطون » وكان مدرسونا يشبهون « شاويشية » الكتائب ، وقاعات المذاكرة تشبه عنابر الجند وألعابنا تشبه المناورات الحربية ، وامتحاناتنا كالاستعراضات . وقد استولى على لبى عندئذ

حب طاغ حقا ، حب لامثيل له لمجد السلاح ، وكان حبا عاثرا ؛ لأنه جاء فى الوقت الذى أخذت تتخلص فيه فرنسا منه .

وصفة الشرود التى يشير إليها « دى ڤيني » فى مطلع هذه الفقرة صفة صادقة ، كانت من بين الأسباب التى حملت التلاميذ على أن يسيئوا معاملة الطفل الفريد ، حتى أحس بأنه ناب وفى سطهم ؛ وربما كانت هذه أول بذرة من بذور التشاؤم فى نفسه .

وعند ماالتحق بالجيش فى السابعة عشرة من عمره ، عمل فى حرس القصر ، ثم طلب أن ينقل إلى الجيش العامل فى الميدان ، عندما نشبت الحرب ضد إسبانيا ، وأجيب إلى طلبه ، وسافر إلى جبال البرناس على الحدود الإسبانيه ولكنه لم يجتزها . بل استبقى فى المؤخرة ، وبذلك لم يشترك فى الحرب ولم يصب مجداً ، وخاب أمله نهائياً ، فاستقال من الجيش سنة ١٨٢٧ ، وقد علق على خيبة أمله هذه بقوله : « لقد امتشقت سيفى فى الوقت الذى أخذت فرنسا تغمده فى غمد الملكية التى عادت إليها بعد انقضاء نابليون ومجده . وأخذ يدرك أن مزاجه ليس مزاج رجل السلاح ، وأن عمله فى الجيش كان خطأ كبيراً ؛ إذ حمل إلى مجال النشاط المتوثب مزاجاً تأمليًا خالصاً .

وأخذ دى ڤيى يلتمس فى الأدب الشهرة والمجد ، اللذين لم

يستطع بلوغها عن طريق الحرب . واستقر بباريس حيث أخذ يخالط الأوساط الرومانسية ، ويضيف القصص والمسرحيات إلى إنتاجه من القصائد الشعرية ، ولكنه بعد موت أمه وانفصام رابطة الغرام بينه وبين الممثلة الشهيرة فى عصره مدام «دورڤال» ، نراه يبتعد عن أصدقائه الرومانسيين ، وينسحب كما قال الناقد «سانت بيف» إلى برجه العاجى ، ثم ينتقل إلى ضيعة ورثها فى مقاطعة «شارانت» فى سنة ١٨٣٨ ، ولكن موت صهره الإنجليزى يضطره إلى أن يقيم خمسة أشهر فى إنجلترا لتصفية نصيب زوجته الإنجليزية فى التركة ، وذلك لأنه كان قد تزوج وهو فى «البرينيه» مع كتيبته سنة ١٨٢٥ من فتاة إنجليزية اسمها «ليديا بونبرى» بعد أن كانت أمه قد رفضت زواجه من فتاة فرنسية أحبها ، وكانت هذه الفتاة الإنجليزية بنتاً لرجل كون ثروة كبيرة فى مستعمرات إنجلترا ، ولكن الشاعر وزوجته لم يرثا شيئاً من تلك الثروة التى تركها صاحبها مثقلة بالديون ، وأصيبت زوجته الإنجليزية بمرض ظل يلازمها طوال حياتها إلى أن ماتت قبل الشاعر ببضعة أشهر ، وعاش «دى ڤينى» طوال هذه الفترة المديدة ممرضاً لزوجته ، وفى كل هذه الظروف ما بذر بلا ريب فكرة أخرى من بذور التشاؤم فى نفسه .

وعاد «دى ڤينى» فى ربيع ١٨٣٩ إلى باريس حيث ظل يجاهد جهاداً مريراً ، لكى ينتخب عضواً فى الأكاديميا الفرنسية التى رشح نفسه لعضويتها خمس مرات ، ولم ينجح إلا فى

المرة السادسة فى الانتخابات التى أجريت فى ٨ مايو سنة ١٨٤٥ وقد وصف فى كتابه « يوميات شاعر » زياراته لأعضاء الأكاديميا بين سنة ١٨٤٢ وسنة ١٨٤٥ وصفاً لاذعاً مريراً يوحى بالتقزز . وفى يوم استقباله بالمجمع تلقاه الكونت موليه بخطبة جارحة مما زاده مرارة على مرارة ، وأضاف بذرة جديدة إلى بذور تشاؤمه ، فترك باريس عائداً إلى الريف إلى جوار زوجته المريضة ، وفى الريف أيضاً لا حقه سوء الحظ ؛ إذ رشح نفسه مرتين للنيابة عن مقاطعة « شارانت » وسقط فى المرتين . وعاد مرة أخرى إلى باريس ليعيش منعزلا فى غير أوقات تردده على الأكاديميا أى المجمع اللغوى . وفقد زوجته فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٦٢ ثم أخذ يحس بمرض السرطان فى معدته ، حتى قضى عليه هذا المرض فى سبتمبر سنة ١٨٦٣ ، بعد أن لاحقته المحن طوال حياته ، ومع ذلك فقد استطاع كما قلنا أن يتغلب فى نهاية الأمر على تشاؤمه الحالك بأمل راسخ متين فى مستقبل الإنسانية وإمكان تخلصها — بفضـــل قوة الفكر من كافة الشرور والآثام .

مسرحية شاترتون

لايعتبر « الفريد دى ڤينى » كما قلنا من الشعراء الغزيرى الإنتاج ، وبخاصة إذا قورن بزميل له فى المذهب مثل

«ڤيكتور هيجو» الذى خلف مايقرب من المائة والخمسين مجلداً بين نثر وشعر ، ومع ذلك فقد ترك لنا الفريد دى ڤيني بضع قصص نثرية ويوميات ، وبضعة دواوين شعرية ؛ ربما كان أقواها وأروعها ديوان « الأقدار » الذى لم تجمع قصائده ، ولم ينشر إلا بعد موته فاستحق الخلود ؟

وإذا كنا لا نستطيع أن ندرس ونحلل هنا قصصه ودواوينه ؛ لأن هذا العمل يحتاج إلى كتاب خاص — فإننا لا نستطيع أن نغفل الإشارة إلى نشاطه العـــام فى التأليف المسرحى ، قبل أن نفرغ إلى تحليل خير مسرحياته ، وهى مسرحية « شاترتون » التى نقدم لها الآن .

ابتدأ الفريد دى ڤيني اتصاله بالأدب المسرحى بتراجم واقتباسات من شكسبير ، ولم يكن هذا شأنه هو وحده ، بل شأن معظم الرومانسيين الذين اشتغلوا بالتأليف المسرحى ، وعلى رأسهم « ڤيكتور هيجو » الذى ترجم فى مستهل حياته الأدبية ، جميع مسرحيات شكسبير إلى اللغة الفرنسية : واعتمد على دراسته وتحليله لهـــذه المسرحيات فى هجومه العنيف على المذهب الكلاسيكى ، وما قيد به التـــأليف المسرحى من قيود أخذها عن أرسطو ، الذى فصّلها فى كتابه عن فن الشعر ، فثورة هيجو فى المقدمة الضافية التى كتبها لمسرحية « كروميل » ضد الكلاسيكية ، فى محاكاتها لشعراء الرومان واليونان القدماء ، وفى حرصها على اختيار

موضوعاتها من تاريخ وأدب وأساطير اليونان ، والرومان القدماء وفى التزامها ماسمته بالوحدات الثلاث : وحدة الموضوع ووحدة الزمان ، ووحدة المكان ، وضرورة توفرها فى كل مسرحية ، ثم فى حرصها على فصل الكوميديا عن التراچيديا فصلا حاسماً بحيث لا تتخلل أية تراچيديا مناظر أو شخصيات كوميدية أو العكس — فى كل هذا استند « هيجو » على مسرح شكسبير الذى بلغ القمة ، دون أن يتقيد بأى من هذه القواعد والأصول ، فلا محاكاة للأقدمين ، ولا وحدات ثلاث ولا فصل بين الأنواع ، بل جمع بين المضحك والمحزن فى المسرحية الواحدة ، ما دامت الحياة لاتتورع عن الجمع بينهما فى صعيد واحد وزمان واحد ، وما دام المسرح مرآة لهذه الحياة ، ولكل هذا كان من الطبيعى أن يتجه الفريد « دى ڤينى » هو الآخر فى مستهل حياته الأدبية إلى شكسبير ، وإن يكن يكبر « ڤيكتور هيجو » بستّ سنوات ، وكانت أول محاولة قام بها دى ڤينى هى ترجمة مسرحية «روميو وچوليت» لشكسپير شعراً بالاشتراك مع الشاعر « إميل دى شان» فى سنة ١٨٢٩ وقبل مسرح الكوميدى فرانسيز هذه الترجمة ، ولكن المسرحية لم تمثل ؛ لأن مسرحاً آخر هو مسرح الأديون بادر إلى تقديم المسرحية نفسها من ترجمة فردريك سوليه ولم تلق نجاحاً . ثم ترجم دى ڤينى ترجمة حرة ، أو على الأصح اقتبس مسرحية عطيل من شكسبير ، ومثلتها الكوميديا الفرنسية

فى ٢٤ اكتوبر سنة ١٨٢٩ ، وأخيراً ترجم أيضاً مسرحية « شيلوك تاجر البندقية » شعراً ، ونشرها فى سنة ١٨٣٩ ، ولكنها لم تمثل على حشبة الكوميدى فرانسيز إلا فى سنة ١٩٠٥ ، ثم ابتدأ « الفريد دى ڤيني » يؤلف المسرحيات . ومن أهم ما ألف مسرحية تاريخية نثرية فى خمسة فصول باسم « ماريشالة آنكر » ، التى مثلت على مسرح الأوديون ، ولم تنل نجاحاً كبيراً ، ولا أصـــابت خلوداً مثلما أصابت مسرحيته الذهنية التى كتبها فى ثلاثة فصول نثراً ، واعتبرت رائعته الفذة ، وهى « شاترتون » التى مثلت لأول مرة على خشبة الكوميدى فرانسيز فى ١٢ فبراير سنة ١٨٣٥ بنجاح رائع ، يعزى بعضه إلى الممثلة الكبيرة التى مثلت عندئذ دور « كيتى بل » ، وهى مدام « دور فال » عشيقة دى ڤيني ، والتى لعبت فى حياته دوراً كبيراً ، وعلى أثر القطيعة بينهما كتب الشاعر قصيدته الخالدة « غضب شمشون »

هذا ، ولقد قدم « الفريد دى ڤيني » نفسه لمسرحيته عند طبعها بمقدمة طويلة تحت عنوان « آخر ليلة فى العمل » أو « ليلة ٢٩ / ٣٠ يونيه سنة ١٨٢٤ » ، وهى الليلة التى تلت مباشرة فراغه من كتابة المسرحية ، وفيها يصف هذه المسرحية بأنها مسرحية ذهنية ، والحركة فيها حركة معنوية خالصة ، حتى لمكن تلخيصها كما قال هو نفسه فى : « رجل يكتب خطاباً ثم ينتظر الرد يوما كاملا حتى إذا جاء هذا الرد ، قتله » .

والواقع أن الفترة التى كتب فيها « الفريد دى ڤينى » هذه المسرحية كانت فى تاريخ فرنسا فترة طغت فيها الطبقة البرجوازية الرأسمالية فى ظل الملكية التى عادت إلى عرشها ، وشعر رجال الفكر والفن عندئذ بضياعهم ، وإهدار المجتمع لقدرهم حتى ضاقت بهم الحياة وسئموها ، وانتحر عدد كبير منهم ، أفزعت أنباء انتحارهم جميع رجال الفكر والفن والأدب . فرأى « الفريد دى ڤينى » أن ينقل هذه المشكلة الخطيرة إلى خشبة المسرح ليشهدها الجمهور مجسمة . واشترك قصاص فرنسا الأكبر «بلزاك» فى عرض هذه القضية على الجمهور فى الرسالة الشهيرة التى نشرها فى أول نوفمبر سنة ١٨٣٤ تحت عنوان « خطاب إلى الكتاب الفرنسيين » ، وكان دى ڤينى قد سبق هو نفسه إلى الحديث عن وضع الشاعر فى المجتمع فى قصيدته « موسى » التى يقول فيها : « إن امتياز الرجل العظيم يقضى عليه بالعزلة والشعور بالوحدة » . ثم عبر عن الخواطر والأحاسيس نفسها فى قصته « ستيللو » .

وفى أواخر القرن الثامن عشر كان الشاعر الإنجليزى الشاب شاترتون قد انتحر فى الثامنة عشرة من عمره فى ٢٤ أغسطس سنة ١٧٧٠ بسم الزرنيخ . وكان «شاترتون» هذا قد ولد فى بريستول بعد موت أبيه ، وتربى فى إحدى المدارس الخيرية . وكان ذا طبيعة متكبرة كاظمة ، وكتب بضع مقالات وألف بضع قصائد ، نسبها إلى راهب شاعر من

رجال القرن الخامس عشر الميلادى سماه « توماس رولى » Thomas Rowley . ولكى لا يموت جوعاً ، أخذ يحرر بيانات سياسية ، ويبيع قلمه إلى رجال الحكم والمعارضة فى الوقت نفسه . وبعد تخبطات عدة ضيق عليه البوّس الخناق فانتحر . ومع ذلك أسبغ عليه عدد من الشعراء وبخاصة الرومانسيين منهم طابعاً مثالياً ، وجعلوا من شخصه غير المحبب شخصاً مثالياً موهوباً راح ضحية غلظة المجتمع وجحوده .

واتخذ « الفريد دى ڤينى » من شاترتون هذا رمزاً للشاعر العبقرى الذى يروح ضحية المجتمع تحت ظل مختلف النظم ، كما راح الشاعر العبقرى أندريه شينييه نفسه على يد روبسپير أحد قادة الثورة الفرنسية الكبرى العتاة ، وقبل أن يسقط هذا السفاح بساعات وتجز رأسه هو الآخر . وأغفل دى ڤينى أو تغافل عن كافة الحقائق المنفرة فى حياة الشاعر الإنجليزى ، لكى يجعل منه مثالا للشاعر الموهوب ، وضحية للمجتمع تثير فينا الشجون نفسها التى أثارها انتحار عدد من الشعراء الفرنسيين فى ذلك العصر — فى الصحف وفى الرأى العام الفرنسى كله .

فمسرحية شاترتون تعرض لنا هذا الشاعر ، وقد أوى إلى غرفة بأعلى سطح منزل التاجر الثرى « چون بل » ، وزوجته الورعة الرقيقة الطاهرة الصافية النفس « كيتى بل » ، التى صور فيها شخصية عشيقته المعبودة الممثلة الكبيرة مدام «دورڤال» ، التى قامت بهذا الدور على خشبة مسرح

« الكوميدى فرانسيز » ، وأصابت نجاحاً منقطع النظير ، وشعرت « كيتى » بمبلغ فقر شاترتون المدقع ، فكانت لا تقتضيه أحياناً أجر الغرفة ، بينما كان زوجها السوق القاسى يراجع حساباتها مراجعة عسيرة ، ويحاول أن يكشف عن سبب العجز فى هذه الحسابات . و« كيتى » تتحايل للإفلات من ضغطه ، وكان يتردد على الأسرة رجل طيب ينتمى إلى إحدى الجمعيات الدينية التى تدعو إلى خوف الله والتحلى بالفضائل النفسية الرفيعة ، ولكن فى غير طنطنة ولا ضجيج وعظى ، وكان الشاعر يلزم غرفته كل الوقت ، ولا يكاد يتردد عليه فيها غير طفلى « كيتى بل » وزوجها . ولم تلبث شفقة « كيتى » بالشاب السجين فى غرفته أن انقلبت إلى حب صامت ، لم تعلنه ولم نعلم به لا نحن ولا شاترتون نفسه إلا فى اللحظة التى لفظت فيها « كيتى بل » آخر أنفاسها ، عندما خرت ميتة بعد أن رأت شاترتون يموت أمامها منتحراً بسم الزرنيخ .

وفى أحد مشاهد المسرحية نرى جماعة من اللوردات يعرجون على بيت صديقهم المليونير « چون بل » . ومن بين هؤلاء اللوردات اللورد « تالبوت » الذى نعلم منه أنه قد حدس شخصية الشاب المعتزل فى الغرفة الكائنة بأعلى سطح المنزل بالرغم من إخفاء شاترتون لها ، كما نعلم أن شاترتون كان زميلا للورد تالبوت هذا فى جامعة أكسفورد ، وأن والد شاترتون كان من الأثرياء الكبار الذين فقدوا ثروتهم فأحاط

الفقر والبؤس بابنه . وهذا كله طبعاً من نسج خيال دى ڤيڤى ، فنحن نعلم تاريخياً أن والد شاترتون كان مدرساً متواضعاً بإحدى المدارس الأولية ، وأنه مات قبل أن يولد ابنه غير تارك أية ثروة . ويستخدم دى ڤيڤى هذا المشهد لكى يصور لنا إباء شاترتون واعتزازه بكرامته ، عندما نعلم أنه لا يرضى أن يمد يده ليتلقى عوناً من صديق مثل لورد تالبوت أو غيره ، وأنه قد فضل أن يكتب إلى اللورد بيكفورد عمدة لندن ليطلب إليه عملاً كممثل للدولة . وبالرغم من أن شاترتون قد اعتزل الحياة والأحياء ، واختفى عن الأنظار ، إلا أننا نعلم من لورد تالبوت أن النقاد والصحف لا يزالون يلاحقون الشاعر الشاب ، ويتهمونه بالتزوير زاعمين أن ما كتب من شعر ليس له ، وإنما هو حقاً للراهب الذى استعار الشاب اسمه . وفى خلال كافة المشاهد يظل الرجل الطيب عضو الجمعية الدينية ، رسول تهدئة وسلام بين كافة شخصيات هذه المسرحية.

وفى مساء اليوم نفسه يصل إلى شاترتون رد اللورد العمدة ، وما يكاد الشاعر الشاب يفض غلاف الجواب حتى يفيض به الكأس ، ويأخذ اليأس بأنفاسه أخذا قاسياً ، وذلك لأن السيد اللورد قد عرض عليه وظيفة خادم أول فى قصره ، وليس بعد هذا امتهان لمثل هذا الشاعر العبقرى الموهوب ، الذى لا يجد عندئذ مفراً من أن يلقى بالأوراق التى سجل عليها إنتاجه الشعرى الجديد خلال عزلته — إلى النار المتقدة

فى غرفته ، ثم يتناول سم الزرنيخ الذى كان قد أعده من قبل . وعندما تصعد « كيتى بل » لتراه محتضراً تبوح لأول مرة وآخر مرة بحبها له ، ثم تخر هى الأخرى ميتة موتاً رومانسياً رائعاً !

فالمسرحية كما هو واضح من هذا التلخيص السريع خالية من الحركة المادية القوية العنيفة التى نجدها عند رومانسيين آخرين مثل « ڤيكتور هيجو » و « اسكندر ديماس » .

« فالفريد دى ڤينى » كان كما قلنا مفكراً بقدر ما كان شاعراً ، وعن هذا المزاج السعيد بين الإحساس الشعرى المرهف العاطفة ، والفكر المتحمس ، صدر دى ڤينى فى تأليفه لهذه الرائعة المسرحية ، التى دافع عنها هو نفسه فى يومياته داعياً إلى ضرورة التخفيف من الحركة المادية لترك المجال واسعاً أمام الحركة المعنوية ، فمسرحية شاترتون تعتبر كما قال مؤلفها بحق من المسرحيات الذهنية ، وإن يكن المؤلف قد نجح فى أن يحتفظ لها بقدرة الإثارة العاطفية التى يفتر المسرح الذهنى بدونها ، ويبرد ويصبح غير صالح إلا للقراءة فحسب . كما حدث بالنسبة لعدد كبير من المسرحيات الذهنية التى كتبها أديبنا المعاصر توفيق الحكيم .

وهكذا يظهر لنا إلى أى حد تختلف مسرحية شاترتون عما عهدناه فى المسرحيات الرومانسية ، وتقترب أشد القرب من المسرحية الكلاسيكية فى بساطة أحداثها وهدوء الحركة

المادية فيها ، وإن تكن تختلف بعد ذلك عن المسرحية الكلاسيكية فى أنها لا تقوم على التحليل النفسى للشخصيات وللسلوك البشرى ، بل تقوم على الدعوة إلى قضية لا تزال موضع اختلاف بين الناس ، ومنهم من ينكر على الشاعر حق التفرغ لأحلامه ، وطلب العون من المجتمع أو الدولة ، بينما لا ينكر البعض الآخر على الشعراء حق الشكوى من مجتمعاتهم وحكوماتهم التى لا تعترف بفضلهم ونبوغهم الكاملين ، وبأهمية إنتاجهم الذى يسمو بالنفوس ، ويرهف الأذواق ، ويساعد على تربية عامة المواطنين أجمل تربية وأسماها ، ويأنفون من رؤية الشعراء خاصة . ورجال الفكر عامة أشقياء فى مجتمعاتهم يلهب ظهورهم سوط الحياة المادية التى لا يمكن أن تجعل من الإنسان إلا مجرد حيوان راب قد لا يدرك طعم السعادة نفسها رغم رخائها المادى ، فالإنسان كما يقولون جسم وروح . وإغفال أحد الجانبين لابد أن يخل بتوازن الحياة فى نفس الفرد ونفس المجتمع على السواء .

وأما عن القيمة الفنية الخالصة لهذه المسرحية ، وما يمكن أن يكون لها أو عليها من هذه الناحية ، فلست أرى فى الحكم عليها خيراً مما كتبه كبير أساتذة الأدب فى فرنسا ، وكبير مؤرخيه « جوستاف لانسون » حيث قال فى موسوعته الضخمة عن تاريخ الأدب الفرنسى « لالفريد دى ڤينى » مسرحية واحدة يعتد بها وهى « شاترتون » التى مثلت لأول مرة فى ١٢ فبراير

سنة ١٨٣٥ بمسرح الكوميدى فرانسيز ، ولكنها مسرحية ممتازة فلا تاريخ فيها ولا خصائص خارجة عن المألوف (تشير بذلك إلى مسرحيات «اسكندر دوماس» التاريخية ، وإلى مسرحيات ڤيكتور هيجو المليئة بالخوارق) فدى ڤينى لا يهتم بما كان عليه بطله فى واقع الحياة ، وهو ينحى حقائق حياته الأكيدة . وليس شاترتون بالنسبة إليه إلا مجرد « اسم رجل » ، وهو لا يأخـــذ من حياته إلا ما يجعله نموذجا ، فلا حبكة ، وأقل ما يمكن من الحركة . والمسرحية كما يقول دى ڤينى نفسه « قصة رجل كتب خطابا فى الصباح وانتظر الرد حتى المساء ووصل الرد فقتله » . وهنا يقول الشاعر « إن الحركة المعنوية هى كل شىء » ونحن نعلم إلى أى مدى تقترب هذه المسرحية الرومانسية من المذهب الكلاسيكى ، ولكن ها هو ذا الفارق ، فموضوع دى ڤينى ليس دراسة للشخصية ، ولا تحليلا للمشاعر وإنما هو إبراز لفكرة فلسفية حيث يقول هو نفسه : «لقد أردت أن أظهر الرجل الروحى مختنقا بالمجتمع المادى ، حيث يستغل الجشعون الأشحاء بغير رحمة ــ الذكاء والعمل » وهو يقول أيضا إن شاترتون رمز للشاعر ، بينما يرمز «چون بل» واورد بيكفورد للبرچوازية الرأسمالية التى لا تقدر غير النشاط الصناعى والمالى . والشاعر المهجور محط السخرية الجائع الذى لا فائدة منه ، فى مثل هذه البيئة يحس باستحالة الحياة ، وعلى هذه الفكرة التى لا تدهشنا من كاتب قصيدة «موسى» وقصه «ستللو بنى» دى ڤينى

دراما مثيرة متزنة مركزة المرراة . وعلى نحو ما فعل فى قصائده نراه يصور شخصياته الرمزية فى دقة غزيرة تنفث فيها الحياة . فلورد بيكفورد بتفاهته المزعجة ، وچون بل بسوقيته القاسية ، وصديق الأسرة المتدين الذى يعلم الفضيلة فى غير تصنع ولا ثرثرة ، ثم على الأخص « كيتى بل » البالغة الورع والإخلاص والطهارة والرقة — « كيتى » التى تقودها الرحمة إلى الحب ، ولا تعلن حبها إلا بموتها — كل هذه الشخصيات صورها الشاعر فى قوة وفى صدق ، كأنها شخصيات واقعية ، وشخصيات رمزية فى وقت واحد ، والصورة الوحيدة الفاشلة هى صورة شاترتون . وكان من الصعب ألا تفشل مادام شاترتون شخصا فردى النزعة ، فليست هناك أسباب جدية لموته ، شكواه تتعدى موهبته أو بؤسه ، وما دام بطل المسرحية فكرة فلسفية مجردة فهو غير حى ، وعندئذ فلا تأثير لموته ، ولابد من أن ينحط أو يبرد فى نظرنا ، وهذا هو خطر الرمز فى المسرح ، وإن يكن دى ڤينى قد نجح فى حدود الممكن فى أن يخفى عيب هذا التصميم . وفى مسرحيته قوة وإثارة عاطفية ، يبدو أنها لم تلق التقدير العادل » .

وإشارة « لانسون » إلى أن هذه المسرحية لم تلق التقدير العادل يلوح أنه ينصرف إلى الأجيال اللاحقة لعصر دى ڤينى ؛ لأن السجلات المسرحية فى باريس تثبت أن هذه المسرحية ، لم تمثل غير سبع وثلاثين مرة ، كان آخرها فيما نعلم فى

سنة ١٩٣٥ ، حيث مثلتها فرقة الكوميدى فرانسيز احتفالا بمرور مائة عام على تمثيلها لها لأول مرة . ومع ذلك ، فالمسرحية لاتزال حية يقرأها الملايين كل عام ، وتدرس فى المدارس والمعاهد والجامعات ، كما أنها ترجمت لكافة لغات العالم الكبرى تقريباً . وهى بعد ذلك ، قد لقيت فى عصرها نجاحا كبيرا ، وعلق عليها الأدباء والنقاد عندئذ تعليقات إعجاب وتأثر بمضمونها وصورتها الفنية ، ولعله كان من الطبيعى أن يطرب معاصروه أيما طرب بمسرحية دافعت عن وضعهم الاجتماعى والإنسانى أقوى دفاع ، وأشده حرارة ، وأرضت الرأى العام الذى كان قد أخذ يستشعر عندئذ مأساة ذلك العدد الكبير من الشعراء الذين انتحروا بؤسا تحت حكم الملك لويس فيليب الذى عرف فى تاريخ فرنسا باسم حكم البرچوازية الرأسمالية الغليظة الحس والذوق .

محمد مندور

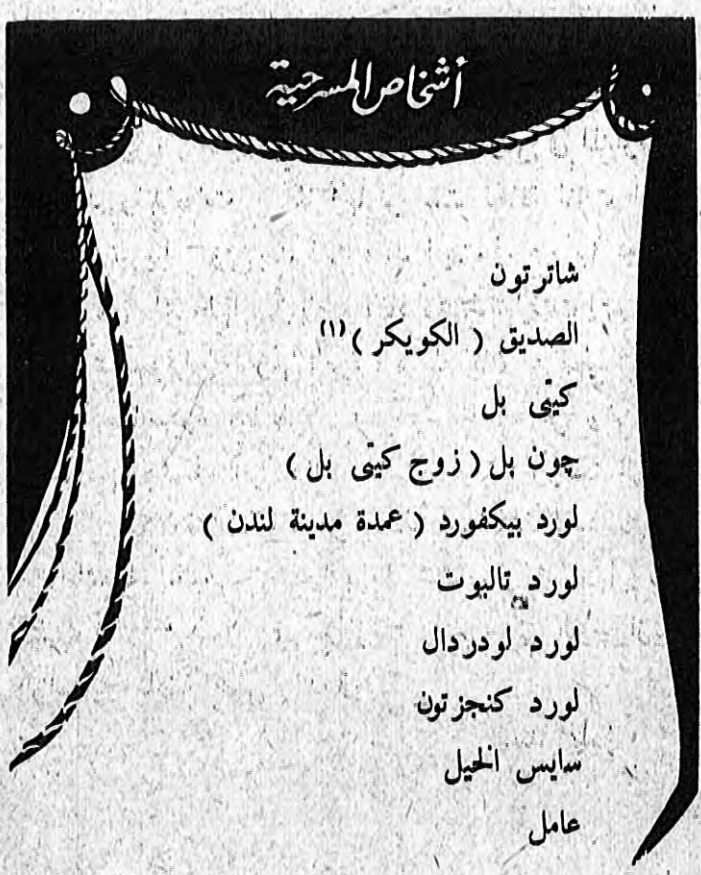

(١) عضو فى جماعة الأصدقاء (الكويكرز) وهى هيئة مسيحية يكثر أتباعها فى بريطانيا وأمريكا . أسسها «جورج فوكس» فى القرن السابع عشر على دعائم من حب السلام ، ونبذ العداوة والحروب . وتلتزم الجماعة مبادئ السيد المسيح فى روحها كما وردت فى الإنجيل ، فلا تؤمن بالعقائد والطقوس ، ولا بالأسرار الكنسية والكهنوت ، بل ترى أن الصمت أمام الله كاف للاتصال الروحى بين الإنسان وربه . كما تدعو إلى الزهد والتقشف والقصد فى المجاملات ، وتنهى عن اللهو فى مختلف صوره من موسيقى وميسر ورقص . وقد أطلق على الجماعة اسم Quakers أى المرتجفين لأن مريديها يرتجفون إجلالا وخشوعاً كلما ذكر اسم الله . (المترجم)

راشيل (ابنة كيتى بل ، وهى طفلة فى السادسة من عمرها)

شقيق راشيل (طفل فى الرابعة من عمره)

ثلاثة من اللوردات الشبان

إثنا عشر عاملا فى مصنع چون بل

خدم اللورد عمدة مدينة لندن

خادم چون بل

سايس الخيل

مثلت هذه المسرحية لأول مرة على المسرح
الفرنسى بباريس فى ١٢ فبراير ١٨٣٥

عرض وتحليل للأدوار الرئيسية

مسرح الأحداث : مدينة لندن عام ١٧٧٦

شارتون

الشخصية : شاب فى الثامنة عشرة من عمره ، شاحب اللون ، فى قسمات وجهه قوة ، وفى جسده وهن ، قد هدّ من كيانه السهد والفكر ، تتسم سجاياه بالبساطة والأناقة معاً ، رقيق حيّ مع كيتى بل ، ودود كريم مع الصديق ، أبىّ متعال على الآخرين ، يتخذ من الناس جميعاً موقف الدفاع عن نفسه ، فى نبرات صوته كما فى لهجته رزانة وحس صادق .

الملبس : سترة وصديرية وسروال أسود ، حذاء لين طويل ، شعر كستنائى يتهدل فى غير نظام ، يجمع مظهره العام بين صرامة الجندى ووداعة رجل الدين .

كيتى بل

الشخصية : زوج شابة فى الربيع الثانى والعشرين ، تكسو محياها الجميل سحائب حزن ، رشاقتها فطرية أكثر منها مكتسبة ، متحفظة تقية ، فى طبعها استحياء ووجل . ترتعد فرائصها فى حضرة زوجها ، تغلق قلبها الحانى على محبة صغارها ، وتنصرف بجوارحها إلى واجباتها كأم . يستحيل عطفها على شاترتون إلى حب لاعج تحسه وتخشاه ، فتزيد من تحفظها الذى فرضته على نفسها . توحى رؤيتها بأن ثمة فاجعة لم تكن فى الحسبان ستودى بحياتها بغتة .

الملبس : ثوب طويل من الحرير الرمادى ، قبعة من المخمل الأسود ، أشرطة سوداء ، شعر طويل معقوص تسترسل غدائره الملفوفة على صدرها .

الصديق

الشخصية : شـــيخ فى الثمانين من عمره ، قوى البنيان سليم الجسم والنفس معاً ، فى نبرات صوته حيوية وصدق ، وسعت عاطفته الأبوية كافة مخالطيه ، يرقبهم فى صمت ، ويرشدهم دون ثمة إساءة أو إيلام ، يسخر من المجتمع ، ويزود عنه كلما وضحت له شروره ، فى خلقه صرامة على المجتمع ورحمة بالأفراد ، ينطلق بالفكاهة اللاذعة كلما استبد به السخط . له فى الأمور عين نفاذة ، غير أنه يتظاهر بالغفلة ، حتى لا ينازعه الهوى سلطانه على سلوكه . صديق لآل چون بل ، لا يتوانى عن تحقيق مطالبهم وإقرار السلام فى ربوعهم ، حتى آمن به الجميع ، واتخذوه — سراً — هادياً لهم ومرشداً .

الملبس : سترة وصديرية وسروال قصير ، جوارب بنية اللون ، قبعة كبيرة مستديرة ذات حافة عريضة ، شعر أبيض مسدول .

چون بل

الشخصـــية : رجل تتراوح سنه بين الخامسة والأربعين والخمسين ، قوى البنية ، منتفخ البطن من نهمه فى عب الجعة ، والتهام اللحوم الباردة . تم مشيته المختالة عن ثرائه العريض . تساوره الشكوك فى كل أمر ويسيطر عليه حب التسلط ، بخيل وغيور وعنيف فى تصرفاته ، يحرص على إشعار الغير بسيادته فى كل كلمة تخرج من فيه ، أو حركة تبدر منه .

الملبس : بذلة فضفاضة بنية اللون خلو من الأناقة ، شعر مسترسل .

لورد بيكفورد

الشخصية : كهـــل غنى ملحوظ المكانة ، مولع ببسط حمايته على الغير فى بلاهة وغبـاء ، تتدلى أوداجه المكتنزة على رباط عنق مطرّز ، يمشى بخطى ثابتة تبعث على توقيره ، نفسه مفعمة بتقدير الأغنياء وازدراء الفقراء .

الملبس : ياقة خاصة بالعمد حول عنقه ، سترة ثمينة ، صديرية من الحرير البروكار ، عصا ضخمة ذات قبضة ذهبية .

لورد تالبوت

الشـــخصية : شاب يجمع بين الغرور وطيبة القلب ، رفيق مرح ، فى خلقه اندفاع وخرق وعداء للجد والعدل ، غاية سعادته فى الفرار من التبعات وكل ما يثير فى نفسه الحزن .

الملبس : سترة صُيد حمراء اللون ، حزام من جلد الغزال ، سروال قصير من الجلد ، شعر ينتهى بجديلة غليظة ، قبعة سوداء لامعة .

الفصل الأول

يمثل المنظر دار چون بل – مسكن رحيب فى مؤخرة المتجر ، توفرت فيه أسباب النعمة وعلامات الثراء. على يسار الرائى مدفأة تزخر بالفحم الحجرى المتقد، وعلى اليمين مخدع كيتى بل . فى أقصى القاعة باب زجاجى كبير يستبين من خلال مربعاته الصغيرة متجر فخم ، وسلم دائرى كبير يؤدى إلى عدة أبواب ضيقة معتمة ، بينها باب الغرفة الصغيرة التى يسكنها شاترتون .

يقرأ الصديق كتاباً فى ركن من القاعة يسار الرائى وتجلس إلى اليمين السيدة كيتى بل ، وقد وقفت ابنتها وجلس صغيرها على مقعد بجوارها ، خفيض ، على مقربة من قدميها .

المشهد الأول

الصديق — كيتى بل — راشيل

كيتى بل : [لابنتها التى تطلع أخاها على كتاب بيدها] يخيل إلى أننى أسمع أبا كما يتكلم ، فلا تحدثا ضجيجاً ياطفلىّ [إلى الصديق] قلبى يحدثنى أن ثمة شيئاً سيقع ، أفلا تظن ذلك ياسيدى؟ [يهز الصديق كتفيه] . يا إلهى ، إن أباك يزمجر ، لابد أنه ثائر ، إننى أدرك ثورته من دوى صوته ، فكفى عن اللهو يا راشيل ناشدتك الله [ينسل من يدها تطريزها وتنصت] يبدو أنه الآن قد هدأ ، أليس كذلك ياسيدى ؟ [يومئ الصديق بالإيجاب ويواصل قراءته] لا تضعى هذا العقد الصغير حول جيدك ياراشيل ، فإنه من مفاتن الدنيا التى لايجمل بنا حتى لمسها ، ولكن من أعطاك هذا الكتاب ؟ يا لله ! إنه الإنجيل ، من الذى أعطاك إياه بحق السماء ؟ إننى موقنة بأنه السيد الشاب الذى يسكن معنا منذ شهور ثلاثة

راشيل : أجل ، هو بعينه يا أماه .

كيتى بل : أواه ، يا إلهى ! ما هذا الذى فعلتـــه يا بنيتى ؟ أما نهيتك عن قبول أى شئ من أى انسان ؟ أى شئ ، لاسيما من هذا الشاب الفقير ! متى رأيته يا ابنتى ؟ إننى أعلم أنك سعيت إليه صباحاً فى حجرته مع أخيك لتقبليه . لماذا دخلتما حجرته يا طفلىّ ؟ لقد أسأتما صنعا [تحتضنهما] . إننى واثقة من أنه ما زال يكتب ، فمنذ مساء الأمس لم تنطفئ لمصباحه ذبالة .

راشيل : نعم ، وكان يبكى أيضاً .

كيتى بل : يبكى ؟ صه ولاتتحدثى بذلك إلى أحد ، ستذهبين مع أخيـــك لتردى الكتاب إلى السيد توم حينما ينادبكما ، ولكن لاتزعجاه ولا تقبلا منه بعد الآن هدية . ألم تريا أننى لم أحدثه مرة واحدة منذ أقام بيننا من ثلاثة شهور ؟ ومع ذلك تقبلان منه كتابا ؟ ما كان يجمل بكما هذا العمل ، هيا اذهبا فقبلا الصديق الكريم ، إنه بحق خير صديق رزقنا الله به . [يجرى الطفلان ليجلسا فى حجر الصديق]

الصديق : هلما إلى ركبتىّ وأنصتا إلىّ جيدا . قولا

لوالدتكما الصغيرة الفاضلة إنها تحمل قلباً بريئاً صافياً ، قلب مسيحية مؤمنة ، إلاأنها أكثر منكما طفولة فى سلوكها ، وإنها لم تتبصر فيما أمرتكما به ، وإننى لأرجوها أن تضع فى اعتبارها أن إعادة هدية أهداها بائس فقير لهو عمل ينطوى على الحط من شأنه وإشعاره بمبلغ بؤسه .

كيتى بل : [تهب من مكانها] أواه ! إنه لعلى صواب وألف مرة على صواب فيما يقول . أعطنى ، أعطنى الكتاب يا راشيل ، ينبغى لك أن تحتفظى به يا ابنتى ، احتفظى به مادمت حية ، لقد أخطأت أمك ، أما صديقنا فهو دائما على صواب

الصديق : [ينهض فى تأثر ويلثم يدها] آه يا كيتى بل . آه أيتها النفس البريئة المعذبة ! لا تقولى عنى ما تقولين ، فإن الحكمة المطلقة لا وجود لها بين البشر ، ولعلك أدركت ذلك بذكائك ، فإذا كنت على حق فيما قلت من حيث الموضوع ، فقد أخطأت بدورى من حيث الشكل ، فما كان يجمل بى أن أكشف للطفلين عن هفوة ارتكبتها والدتهما . ليت شعرى ، ما من فكرة جميلة يا ابنتى

لم تسم عليها خفقة من خفقات قلبك المستعر ، أو خلجة من خلجات روحك التى تفيض تواضعاً وعذوبة .

[يسمع صوت يرعد]

كيتى بل : [مذعورة] يا إلهى ، ما زالت ثورته عارمة ! إن صوت والدهما ليتجاوب صداه هنا [تضع يدها على قلبها] لم أعد أستطيع التنفس ، إن هذا الصوت يحطم قلبى . ماذا دهاه ؟ إن وطأة انفعاله لم تخف عما كانت عليه مساء الأمس . [تستلقى على مقعدها] إننى فى حاجة إلى الجلوس ، إلا أن العاصفة دانية ، والعواصف كلها تنقض على قلبى الكسير !

الصديق : إننى أعرف ما يعتمل برأس سيدك ومولاك ، إنها مشاحنة مع عمال مصنعه . لقد بعثوا إليه من نورتون بلندن بوفد عنهم يلتمس العفو عن زميل مفصول . لقد قطع المساكين مسافة فرسخ سيراً على الأقدام دون طائل ! — انصرفوا ثلاثتكم فلا جدوى من بقائكم هنا — إن هذا الرجل موردكم موارد الهلاك ، فهو كالنسر

الجارح يدهس أفراخه برجليه [تخرج كيتى بل ويدها على قلبها مستندة إلى رأس ولدها الذى أخذته معها هو وشقيقته راشيل]

المشهد الثانى

الصديق — چون بل — لفيف من العمال

الصديق : [يتأمل چون بل قادماً] ها هوذا يرغى ويزبد ، ها هوذا صاحب الثراء والمضارب السعيد ، والأنانى الفريد ! والرجل العادل فى نظر القانون !

چون بل : [يظهر على المسرح ، وفى إثره عشرون عاملا يتبعونه فى صمت . يتوقف العمال لدى الباب ، ويصب عليهم چون بل جام غضبه] — لا ، لا ، لابد أن يزيد قسطكم من العمل ؛ هذا كل ما فى الأمر .

عامل : [إلى زملائه] ولا بد أن يقل نصيبكم من الأجر ، هذا كل ما فى الأمر !

چون بل : آه ! لو أعلم من تفوه منكم بهذا الكلام لما توانيت عن فصله كما فصلت الآخر .

الصديق : لافض فوك يا چون بل ، ما أروعك ،

وما أشبهك بعاهل وسط رعيته !

چون بل : لا أعر ما قلت أذنا صاغية لأنك من جماعة الأصدقاء . آه لو تبينتُ مَنْ من هؤلاء العمال قد تكلم منذ هنيهة ! يا له من جاحد ناكر للجميل ! أما رأيتمونى جميعاً عاملا فى زمرتكم ، وتعلمون كيف أصبت ما أرفل فيه اليوم من عيش رغيد ؟ هل أقدمت على شراء المصنع ، وجميع منازل «نورتون» دفعة واحدة ؟ فإذا كنت أملك اليوم كل ذلك وحدى فقد ضربت لكم أروع المثل فى الكفاح والاقتصاد . ألم أكن أجمع منتجات يومى ليزيد دخلى السنوى ؟ وهل بدا لكم فى خلقى أى تراخ أو إسراف ؟ ألا فليسلك كل منكم سبيلى ليثرى كما أثريت . لقد هبط استخدام الآلات بأجوركم وزاد من كسبى . هذا صحيح ، وإنى لراث لحالكم ؛ ولكنى جدّ مغتبط بحالى . ولو كانت الآلات ملكاً لكم لغدا من العدل أن يؤول إليكم الإنتاج ، لكننى أنا الذى اشتريتها بمال كسبته بساعدىّ . سيروا على سنّى ؛ واقبلوا

على عملكم بجد ، واتخذوا اقتصاد المال ديدنا لكم ، ولا تنسوا الحكمة التى طالما رددها آباؤنا « حافظوا على الدريهمات ، أما الدنانير فإنها تحفظ نفسها ! » والآن لا أود أن يحدثنى أحد عن « توبى » فقد طردته إلى غير رجعة . انصرفوا دون أن ينبس أحدكم بكلمة ، فمن يبتدر منكم الكلام سألفظه من مصنعى كما لفظت أخا له من قبل ، ولن يجد لنفسه فى القرية مأكلا ولا عملا ولا مأوى . [ينصرف العمال]

الصديق : قواك الله يا صديقى ، فما سمعت طوال عمرى فى البرلمان منطقاً أسلم من منطقك !

چون بل : [عائداً أدراجه وهو يجفف وجهه ، وما زالت تتملكه سورة الغضب] وأنت ، لا تتذرع بكونك من جماعة الأصدقاء » لتفسد كل أمر حيثما كنت ، وأينما حللت . إنك نادر الكلام ، وأحجى بك ألا تتكلم إطلاقاً لأنك تقذف فى خضم الأحداث بأقوال كطعنات الخناجر .

الصديق : هذا ضرب من الحكمة يا أستاذ چون ، والحكمة تصدع رأس المجانين ، لكنى

لست بآسف على لومى ، فإن مرارة كلمة الحق لا تتجاوز لحظة الجهر بها..

چون بل : ما عنيت ذلك : فإنك تعلم أنه يروق لى أن أبادلك الرأى فى شئون السياسة ، غير أنك تقيس الأمور بمقاييسك الخاصة ، ومن ثم كان خطؤك . إن جماعة الأصدقاء الكويكرز التى تنتمى إليها تشذ عن عقائد المسيحية ، وأنت بدورك شاذ بين الجماعة . لقد وزعت ثروتك بين أبناء أخيك ، ولم تعد تملك الآن سوى ما يحفظ عليك رمقك ، وتعيش أيامك الباقيات، فى سكون وتأمل عميق . وما دمت قد ارتضيت ذلك فلا اعتراض لى ، أما الذى لا أقبله فهو سعيك إلى دارى ، وسماحك جهاراً لعمالى بالتطاول علىّ .

الصديق : وما الذى أجداه تطاولهم عليك ؟ ، ليته أجدى ! وهل يحول ثغاء الشاة دون جزها أو أكل لحمها ؟ هل بين هؤلاء المساكين من لا تستطيع أن تبيع سريره الذى يتوسده ؟ وهل هناك أسرة واحدة فى القرية لا تبعث إلى مصنعك بفتياتها وفتياتها ليفتك بهم

السعال والهزال ، وهم ينسجون أصوافك ؟
أى بيوت هنا لا تملكها ، ولا تغالى فى
تقدير إيجارها ؟ ليت شعرى ، ما من دقيقة
من حياة الأهلين إلا بذلوها لك ، وما من
قطرة من عرقهم لم تغل عليك درهماً .
إن أراضى « نورتون » وبيوتها وأسرها ملك
لك ، كما كان العالم فيما مضى ملكاً «لشرلمان» .
إنك الولىّ المطلق على مصنعك الذى يمثل
الإقطاع .

چون بل : كل ما ذكرته صحيح ، لكنه يتفق
والعدالة . فأنا أملك الأرض لأننى شاريها ،
والدور لأننى بانيها ، والأهالى لأننى آويهم
فى ديارى ، والعمل لأننى أنقدهم عنه
أجراً ، ، فما جافيت بذلك العدل فى
نظر القانون .

الصديق : وهل يمثل قانونك العدل كما أراده الله ؟

چون بل : لو لم تكن منتمياً إلى الجماعة لدفع بك إلى
المقصلة جزاء تفوهك بهذا الكلام

الصديق : خير لى أن أزهق روحى بيدى من أن
أقول لك غير ما أومن به ، لأننى أخلص
لك الصداقة .

چون بل : لعمرى ، لو لم تكن بحق صديقى منذ عشرين عاماً ، وقد أنقذت من الهلاك أحد أولادى لما أجزت لنفسى رؤيتك .

الصديق : الويل لك ، فلن أنقذك وقد أعماك الحقد والجشع عن سبيل الخير ، أكثر مما يعمى الأطفال ضعف حداثة عمرهم ، أريد ألاّ تطرد هذا العامل المسكين ، ولا تحسبن ذلك طلباً منى ، فما تعودت طوال عمرى أن أطلب من الغير شيئاً ، ولكنها نصيحة أسديها إليك .

چون بل : لقد قضى الأمر وكان ما كان . لِمَ لا يحتذى العمال حذوى فيعملون هم ويطالبون بالعمل كل من لاذ بهم ؟ ألم أعهد إلى زوجى بضروب مختلفة من الأعمال ؟ الحقّ أنها لا تُرى وهى تعمل ، ولكنها قابعة هنا طوال اليوم تزاول — وهى مسبلة العينين — ألواناً شتى من العمل . وبينما أدير دفة مصانعى العديدة فى ضواحى لندن . ألزمها بأن تواصل وهى فى خدرها رعاية شئون هذه الدار الجميلة التى يحج إليها علية القوم حين عودتهم من المجلس النيابى

أو الصيد أو التريض فى حدائق هايد بارك ، وفى ترددهم ما يوثق صلاتى بهم مما سأفيد منه فى المستقبل . إن « توبى » من مهرة العمال ، غير أنه لم يوت شيئاً من بعد النظر ، فالحاسب البصير لا يدع شيئاً حوله دون أن ينتفع به ، فكل ما نمتلكه ينبغي أن يغلّ سواء فى ذلك القيم الثابتة والمنقولة . فالأرض خصبة ، وكذلك المال والأيام تأتى بالمال ، ولما كانت أعمار النساء تقدر كأعمارنا بالسنين ، فقضاؤهن سنى العمر سدى مضيعة لكسب طائل . لقد ترك « توبى » زوجه وبناته راكنات إلى البطالة ، وتلك مصيبة فادحة لا أحسبنى مسئولا عنها .

الصديق : لقد تحطمت ذراع « توبى » أثناء العمل فى إحدى آلاتك .

چون بل : أجل ، ولكن الآلة تحطمت كذلك من ذراعه .

الصديق : وأنا على يقين من أنك فى قرارة نفسك أشد أسفاً على الذراع الحديدية منك على ذراع من لحم ودم ، اذهب ، لقد قدّ قلبك

من الصلب كآلاتك ، وسيغدو المجتمع عما قريب صنو قلبك ، إلاهه سبيكة من ذهب وكاهنه مراب يهودى ، ولكن لا جناح عليك ، فأنت تسير وفقاً لما ألفته حولك منذ تفتحت عيناك على الدنيا . ولست بناقم قط عليك ، فأنت تتجاوب مع ما يدور حولك ، وتلك لعمرى صفة نادرة . والآن ، إذا كنت راغباً عن كلامى فلا أقل من أن تدعنى أنصرف إلى قراءتى .

[يتناول كتابه ، ويعود أدراجه إلى مقعده]

چون بل : [يفتح باب مخدع زوجه بعنف] هلمى سيدتى ، هلمى .

المشهد الثالث

الأشخاص أنفسهم — كيتى بل

كيتى بل : [تدخل بادية الذعر ممسكة بيدى طفليها اللذين تواريا خلف ثوبها هلما من أبيهما] هأنذا ياسيدى .

چون بل : أرجو أن تحضرى حساب الأمس . وهذا الشاب الذى يقطن بالطابق العلوى أما له اسم

آخر سوى توم أو توماس ؟ لعلّه يبرح الآن غرفته .

كيتى بل : [تتجه صوب المنضدة ، وتتناول سجلا تعود به إليه] لم يدوّن سوى هذا الاسم حينما أجّر الغرفة الصغيرة . هاك حساباتى اليومية مع مثيلاتها فى الشهور الأخيرة .

چون بل : [يراجع حسابات السجل] كاترين ، لم تعد الدقة رائدك مثلما كنت فى سالف عهدك [يقطع حديثه ، ويحملق فى وجهها بتحد ظاهر] أيظل «توم» هذا ساهرا طوال الليل ؟ إن هذا لشىء عجيب ، يخيل إلىّ أنه شديد البؤس [يعود إلى سجله ، ويجول بنظره فيه] أجل ، لم تعد الدقة رائدك كما كنت من قبل

كيتى بل : يا إلهى ! لمَ توجه إلىّ هذا القول ؟

چون بل : ألا تحزرين السبب ياسيدتى ؟

كيتى بل : أتراه يكون لسوء فى ترتيب الأعداد ؟

چون بل : أصدق النساء وفاء من تشيع اللطف فى كل الأمور . ألا تجيبيننى بصراحة وتنظرين إلىّ وجهاً لوجه ؟

كيتى بل : رويدك ياسيدى ، ما الذى ألفيته خطأ فأثار غضبك ؟

چون بل : يغضبنى ألا أعثر على ما أثار غضبى وما يحيرنى اختفاؤه !

كيتى بل : [فى حيرة] لنبحث الأمر ، فإننى لا أفهم مرادك .

چون بل : ينقص الحساب خمسة جنيهات أو ستة ، وهو ما أدركته من أول وهلة وأجزم به .

كيتى بل : هل لك أن تفسر لى كيف كان ذلك ؟

چون بل : [ممسكا زوجه من ذراعها] أرجو أن تذهبى بنا إلى مخدعك لتحضرى ذهنك خيرا مما أنت عليه الآن . إننى أرى أطفالى لا يؤدون عملا وأنا لا أحب لهم البطالة ، وهذه دارى لم تعد رعايتك لها كما كانت من قبل ، وهذا ثوب «راشيل» ينحسر كثيرا عن صدرها وذلك مالا أستسيغه . [تهرع راشيل فترتمى على ساق الصديق ، ويواصل چون بل حملته على زوجه التى سبقته إلى مخدعها] هأنذا ، راجعى هذا الصف من الأعداد واضربى فى سبعة [يدلف إلى الغرفة فى أعقاب كيتى بل]

المشهد الرابع

الصديق — راشيل

راشيل : إلى خائفة !

الصديق : ستقضين حياتك يا ابنتى — حياة العبودية هذه — فى فزع يتلوه فزع ! تفزعين من أبيك اليوم ، وستفزعين من زوجك غداً ، وهكذا إلى أن يأذن الله لك بالخلاص

[وهنا يرى شارتون دالفاً من غرفته ، يهبط الدرج فى تؤدة ، ثم يتوقف قليلا ويتأمل الشيخ والطفلة]

امرحى أيتها الطفلة الجميلة ، وقرّى عينا إلى أن تبلغى مبلغ النساء . اطرحى الهموم والأحزان حتى يحين ذلك الحين ، وإن استطعت بعده أن تلقى بأتراحك فى يم النسيان فافعلى . امرحى دائماً ، ولا تجهدى الفكر إطلاقا . ماذا بك ؟ أتبكين ، وتخفين رأستك فى صدرى ؟ انظرى ، انظرى ، ها هوذا صديقك ينزل الدرج

المشهد الخامس

الصديق — راشيل — شاترتون

شاترتون : [يقبل راشيل التى أقبلت مسرعة إليه ثم يصافح الشيخ]
طاب يومك أيها الصديق الصارم .

الصديق : لست بصديق أو طبيب إلا بقدر . إن روحك تفترس جسدك . فيداك ملتهبتان ووجهك شاحب اللون . كم من السنين تؤمل أن تحياها على هذه الحال ؟

شاترتون : أقصر أجل ممكن ياسيدى ، أليست السيدة بل هنا ؟

الصديق : أليس فى حياتك نفع لأحد ؟

شاترتون : على النقيض ياسيدى ، فإن حياتى لا جدوى فيها لأحد .

الصديق : أتؤمن فى قرارة نفسك بما تقول ؟

شاترتون : إنى مؤمن به بقدر إيمانك أنت بالمحبة فى المسيحية [يبتسم فى مرارة]

الصديق : ترى كم عمرك ؟ إن قلبك طاهر ساذج كقلب راشيل . بينما عقلك كعقلى له تجاربه وشيخوخته .

شاترتون : سأتم فى الغد الثامنة عشرة من عمرى .

الصديق : يالك من طفل تعس !

شاترتون : تعس أجل . أما طفل فلا . . . لقد عشت من السنين ألف عام .

الصديق : لاتكفى هـذه السنون لإدراك نصف ما انطوت عليه صدور الناس من شرور ، بيد أن الشقاء هو العلم العام .

شاترتون : إنى إذن لعالم كبير ! كنت أظن السيدة «بل» هنا . لقد فرغت لتوى من كتابة رسالة كلفتنى غاليا !

الصديق : أخشى أن تكون مبالغاً فى حسن ظنك بالناس ، وطالما نصحتك بالحذر ، فالناس إما جلاد وإما شهيد ، وستكون دوما شهيد الجميع كوالدة هذه الطفلة .

شاترتون : [فى لهجة عاصفة] إن النفس المطمئنة لاتجعل من صاحبها ضحية إلا بقدر ما يرتضيه لها ، هذا فضلا عن أن خلاصه من ربقة الحياة رهين بمشيئته !

الصديق : ماذ تعنى بقولك هذا ؟

شاترتون : [يقبل راشيل ، ويتحدث بنبرات تسيل عذوبة] ترانا

نبتغى أن نثير الرعب فى قلب الطفلة وعلى مسمع من والدتها ؟

الصديق : لقد أصم أذنى والدتها صوت يقل عن صوتك عذوبة فلم تعد تسمع شيئاً . لقد سألت عنها ثلاث مرات !

شاترتون : [مستنداً إلى المقعد الذى احتوى الصديق] عـلى رسلك ياسيدى ، إنك لا تنفك عن تأنيبى ؛ هل لك أن تجيبنى لم لا يدع المرء نفسه على سجيتها ، وينطلق بها إلى منتهى طبيعتها طالما هو يعتزم الغروب عن الدنيا حين تنهكه متاعبها ؟ لقد آليت على نفسى ألا أرتدى قناعاً ، وأن أظل كما أنا حتى النهاية ، لا أصغى إلى صوت سوى صوت قلبى فى نشوته أو انكساره ، وحسبى أن أؤدى رسالة نذرت لها حياتى على خير ما يكون الأداء . ليت شعرى . ماذا يجدى تظاهر المرء بالصرامة وهو بطبعه سمح كريم ؟ قد تبين البسمة الحانية متوارية خلف صرامتى الزائفة فأفتش عن نقاب كثيف لا يكشف ما تحته ، فلا أوفق فى العثور عليه ! ويكيد لى الناس من كل

صوب ، فأكشف عن كيدهم ، ولكننى أقع عامداً فى كمائنه ازدراء لنفسى وزهداً فى صدّ العدوان عنها ، إننى أحسد الناس حين أرى على وجوههم نشوة الفرح بالنصر علىّ بمكرهم السيئ ، أتأملهم من بعيد ، وهم يحيكون حبائله ، وأربأ بنفسى أن أنحنى لأقطع منها حبلا طالما أنا لا أقيم للحياة وزناً . على أن كيدهم قد ارتد إلى نحورهم ، فوفّى بثأرى منهم إسفافهم ، وقد سما بقدرى أمام نفسى . ولا أخال العنـــاية الإلهية تدع الأمور تجرى على هذا النحو أمداً طويلا ، أو لم يكن لها فى خلقى حكمة ، ومن ثم فلا يحق لى أن أكفر بها رغبة فى إصلاح الطبيعة . وهل لى أن أعترض على مارسمه الخالق ؟

الصديق : إن دوام انصرافك إلى الأحلام قد قتل فيك حب العمل .

شاترتون : لست آبه لذلك . فإن ساعة واحدة أقضيها فى عالم الأحلام لتوفّى من الأكل ما يربو على ما يؤتيه عمل الآخرين فى عشرين يوما ! ولكن هيهات ! فمن لى بحكم عدل يحكم

بينى وبينهم ؟ لقد اصطلح الناس على تقييم الفرد تبعاً لحصيلة طاقته الجسمانية ، أما تفكيره فلا يلقى منهم سوى صبابة من عطف .

رب تعالت حكمتك ، هل اقتصرت المعارف الإنسانية على مادة الأرقام حتى غدا فيثاغورس إله العالمين ؟ وهل ينبغى أن أقول للإلهام المضطرم : « إليك عنى فإنك لاتأتى بخير ؟ »

الصديق : لقد دمغك الإلهام بطابعه الفاتك . إننى لا ألومك يا بنى ، ولكنى أرثى لحالك .

شاترتون : [يجلس] خبرنى أيها الشيخ الكريم ، أيحظى ضحايا الفكر بعطف من مجتمعكم القائم على الأخوة والروحية ؟ إننى بذلك زعيم ، لأنى أراك بى رحيما وبالآخرين قاسيا ، وذلك ما يبعث بعض السكينة فى نفسى . [هنا تأتى راشيل فتجلس على ركبتى شاترتون] إننى أشعر بالسعادة تغمرنى منذ حللت هذه الدار من شهور ثلاثة ، فلا يعرف اسمى أحد ، ولا يحدثنى عن نفسى أحد ، وأرى أطفالا أبدع الله خلقهم يقفزون فى حجرى !

الصديق : أيها الصديق ، لقد أحببتك لمتانة خلقك ،

وإنك أهل لتشهد حلقاتنا الدينية التى برئت من عبدة التماثيل وعشاق التراتيل من البر وتستنت وأحببتك فوق ذلك لأننى حدست أن الناس جميعاً لا يحبونك ! إن سدنة التأمل والفكر من أمثالك لقذى فى أعين المائجين الأغرار الذين زخرت بهم الأرض ، وإن الخيال والفكر مرضان لا يجد المصاب بهما مواسيا ! إنك لاتفطن إلى أعدائك الذين يطوفون بك ولا تعرفهم ، أما أنا فمحيط بأولئك الذين يضمرون لك الكراهية بمقدار جهلهم بك .

شاترتون : [فى حماس] ليت شعرى ، أليس من بعض حقى على بنى جنسى أن أحل من أنفسهم منزلة الإعزاز والتقدير ، وأنا من واصل الليل بالنهار سعياً إلى إسعادهم ؟ أنا من شقى فى البحث بين الأمجاد القومية الغابرة عن بعض زهرات الشعر يعتصرها عطراً يفوح على مدى الدهر شذاه ؟ أنا من رام درة جديدة يرصع بها تاج إنجلترا ، فغاص فى أحشاء البحر والنهر منقباً عنها [هنا تترك راشيل شاترتون لتجلس على مقعد خفيض بجوار قدمى الصديق ، وتنصرف إلى مشاهدة

الصور] آه لو تعلم يا سيدى ، ماذا صنعت وماذا خلقت ! لقد جعلت من غرفتى صومعة راهب ، وباركت حياتى وفكرى وطهرتهما من أدران المعاصى ، فغضضت الطرف عن متع الحياة ، وأطفأت بيدى أضواء العصر التى تخطف الأبصار ، وجعلت قلبى أكثر نقاء وصفاء . ثم علمت نفسى اللغة البدائية ، لغة القرون الخوالى ، وأنشدت ملاحم البطولة مزيجاً من السكسونية والفرنسية ، كقصائدى عن الملك هارولد ووليم الفاتح . كما عالجت الشعر الدينى — أزهى فنون الشعر فى القرن العاشر — وأودعته الخزانة المقدسة ، ولو علم القوم أن تلك القصائد من عرائس شعرى لحطموا الخزانة ، إلا أنهم هللوا لها وكبروا لاعتقادهم أنها من يراع راهب لا وجود له فى الواقع ، راهب نسجته بخيالى وأسميته « رولى »

الصديق : أصبت يا بنى ، ففى الناس ولع لإحياء الموتى وإماتة الأحياء !

شاترتون : بيد أنهم ما لبثوا أن فطنوا إلى أن هذا الديوان من نظمى ، ولما استعصى عليهم

وأده تركوه ينعم بالحياة ، لكنى لم أصب منه إلا مجداً هزيلا ، وأنا كما ترى لا أقدر على شيء سوى الكتابة . نعم يا سيدى ، لقد طرقت أبواب العمل فى شتى الميادين فلم أصادف نجاحاً فى أى ميـــدان . نُصحت بالاشتغال بالحسابات ، وأدليت فيها بدلوى ، فكان الفشل حليفى . ليت شعرى ، ألا يغفر الناس للطبيعة أن خلقت على هذه الصورة ؟ ترانى من أولى البأس الخارق ، أم ممن دمغهم الوهن بطابعه المهين ؟ لست أدرى ، لكنى لم استطع يوماً إطلاقاً أن أجعل أمواج فكرى الهادرة حبيسة جدول ضيق رتيب الجريان حتى لا تُغرق تلك الأمواج — على الرغم منى — ضفافه ! وهكذا عجزت عن مواصلة العمل الحسابى البطىء المعاد ، فأعرضت عنه ، واعترفت بهزيمتى أمام الأرقام والرموز ، وعقدت العزم على الإفادة من طاقتى الجسمانية لكنى — ويا للأسف — أحسست حينذاك بهوان وإيلام جديدين ، فإن هذا البدن الذى يعصف به منذ الطفولة حميم السهد

لأوْهَنُ من أن يعمل فى الجندية أو البحر ، بل أوهن من أن يحترف أقل الصناعات. نصبا [ينهض فى اضطراب لا شعورى] وحتى لو كانت الطبيعة حبتنى قوة هرقل لحال على الدوام بينى وبين العمل ذلك العدو الفاتك الذى يلازمنى كظلى ، ذلك الشيطان الخبيث الذى لازمنى دون ريب منـــذ ولادتى ، قد عثر عليه ، دون ريب ، فى مهدى : تلك الشاعرية ياسيدى ، أو هى تلك الأحلام ، لقد أقحم شيطان الشعر أنفه فى كل شئونى ، فمنحنى كل شىء ثم سلبه منى . أقام كيانى ثم هده تماماً . إنه منقذى وهو موردى موارد التهلكة !

الصديق : وما هى صناعتك الآن يا بنى ؟

شاترتون : لست أدرى ، إننى أكتب ، ولماذا أكتب ؟ لست أدرى . . . لأنه لزام علىّ أن أكتب .

[يستلقى على مقعده ولا ينصت إلى حديث الصديق ، وإنما ينظر إلى راشيل ويدعوها لتقترب منه]

الصديق : إن المرض عضال يستعصى علاجه .

شاترتون : مرضى أنا ؟

الصديق : لا يا بنى ، بل مرض الإنسانية . إن قلبك يحضك على أن تبتسم لكل من يقول لك كن إنساناً آخر غير الذى خُلقته ، أما أنا فعقلى

يدعونى إلى ازدرائهم ، لأن لسان حالهم يقول لك « اغرب عن شمس دنيانا فلا مكان لك تحتها » ليتولى برء نفوسهم المريضة من يقدر على ذلك ، أما أنا فلا آمل الكثير فى قدرتى على تقويمهم ، وحسبى أن أكون لهم بالمرصاد .

شاترتون : [مواصلا حديثه الخافت مع راشيل بينما الصديق يتكلم] وإنجيلك ، لِمَ لا تحملينه يا راشيل ؟ أين والدتك ؟

الصديق : [ناهضاً] هل لك أن نخرج معاً .

شاترتون : [إلى راشيل] ماذا فعلت بالإنجيل يا صغيرتى؟

الصديق : اصغ ، ألا تسمع صاحب الدار يرعد ؟

چون بل : [بين الكواليس] أنا لا أرضى عن ذلك مطلقاً . لا يا سيدتى ، ولا يمكن للأمور أن تستقيم على هذا النحو .

الصديق : [إلى شاترتون وهو يتناول عصاه وقبعته مسرعاً] إن عينيك محمرتان من فرط السهد وأحجى بك أن تشبع رئتيك بالهواء الطلق . هلم بنا فإن طراوة الصباح تبرئك من لظى ليلتك .

شاترتون : [يتأمل كيتى وهى مقبلة] حقاً ما أشقى هذه الشابة ، ما أشقاها .

الصديق : إن ذلك أمر لا يعنى سواها ، وأود أن

لا يبقى هنا منا أحد عند قدومها . اترك مفتاح غرفتك ، وستقع عينها عليه فى الحال . إن بين الزوجين أشياء لا ينبغى أن نبدو لها عارفين ، هيا بنا نمضى ، فإنها قادمة .

شاترتون : واحر قلباه ! إنها تبكى بحرقة . لقد أصبت يا سيدى ، بدعوتك إلى الانصراف ، فلا جلد لى على مشاهدة هذا المنظر . هيا بنا نخرج .

المشهد السادس

تدخل كيتى بل وهى تبكى ، وفى أعقابها زوجها چون بل

كيتى بل : [إلى راشيل تدعوها إلى الذهاب إلى الغرفة التى خرجت هى منها] اذهبى مع أخيك ياراشيل ، واتركينى هنا [إلى زوجها] إننى أسألك ألف مرة ألا تصرّ على أن أقول لك لِمَ انتقص هذا المبلغ الصغير ، وهل ستة جنيهات تعد بالنسبة إليك شيئاً مذكوراً ؟ اعلم ياسيدى ، أنه كان فى استطاعتى أن أنتقص منك هذا المبلغ مرات ومرات دون أن تفطن إليه ، ولن يكلفنى ذلك سوى تبديل فى الأرقام ، لكننى أعاف الكذب ، ولو كان

فيه حياة صغارى ، وإنى أستأذنك فى صمتى عن هذا الشأن ، لأننى لا أستطيع لا مصارحتك بالحقيقة ولا الكذب عليك ، ففى الحالين وزر أشفق على نفسى منه .

چون بل : منذ اقترنت بك لم تظهرى إطلاقاً مثل هذه المقاومة .

كيتى بل : لا بد أن يكون الباعث شيئاً مقدساً .

چون بل : أو شيئاً مشينا يا سيدتى !

كيتى بل : [بشئ من الغضب] ألا تصدق ما أقول ؟

چون بل : ربما !

كيتى بل : رحماك ياسيدى ! فإنك تقتلنى بمثل هذه المنازعات [تجلس] .

چون بل : أصحيح ؟ أنك أقوى بكثير مما تظنين !

كيتى بل : لا تمض فى عنادك بحق أطفالنا الأبرياء .

چون بل : حينما يكون فى الأمر سر يكون هناك خطأ .

كيتى بل : وإذا لم يكن فيه غير عمل صالح أفلا تندم على ما تفعل ؟!

چون بل : إن كان عملا صالحا فلِمَ تخفينه عنى ؟

كيتى بل : أتسألنى لماذا أخفيه عنك ياچون ؟ لأن قلبك أضحى جامداً ، ولا بد أنك ستصرفنى عما يمليه على قلبى ، ومع ذلك فمن أحسن

إلى فقير فقد أقرض الله قرضاً حسنا .

چون بل : كان من الخير لك أن تقرضى المال بضمان مجز لقاء فائدة .

كيتى بل : ليغفر لك الله ما أضمرت من حس وما جهرت به من قول !

چون بل : [يذرع الغرفة بخطى واسعة] أراك تكثرين من القراءة منذ أمد قريب ، ألا فاعلمى أننى لا أحب هذا الهوس فى امرأة . أتريدين أن تنخرطى فى زمرة المترددات على الصالونات؟

كيتى بل : يالله ! أبلغ بك الأمر حد الإساءة إلىّ بجارح القول لأننى ، ولأول مرة ، لا أطيعك طاعة عمياء؟ حنانيك ياسيدى ، فما أنا إلا امرأة طيبة القلب لاحول لى ولا قوة ، ولا علم لى إلا بما فرضه علىّ الدين من واجبات .

چون بل : إن معرفتك بتلك الواجبات دون أدائها لهو ضرب من الكفر .

كيتى بل : أمهلنى بضعة أسابيع تمسك خلالها عن ذكر الحسابات ، وستكون أول كلمة تخرج من فمى بعدها هى أن أسألك الصفح عن

تأخرى فى الإفضاء إليك بالحقيقة ، أما الكلمة الثانية فستكون جلاء للحقيقة ذاتها .

چون بل : آمل ألا يكون هناك ماتحرصين على كتمانه !

كيتى بل : أشهد الله على أنه لا توجد دقيقة واحدة فى حياتى تكتنف ذكرياتها مايندى له جبينى

چون بل : ومع ذلك فحتى الساعة لم تخفى عنا أمراً .

كيتى بل : إن الهلع غالباً ما يعلمنا الكذب .

چون بل : أفى استطاعتك إذن أن تكذبى ؟

كيتى بل : لو أننى كنت كذلك لما رجوتك الكف عن ملاحقتى بأسئلتك ، إنك لقاض جائر .

چون بل : جائر ! أطاعينى إذن على مصير هذه النقود .

كيتى بل : حسناً ، أناشدك إمهالى إلى الغد لأوافيك بما طلبت .

چون بل : لك ذلك ، وحتى الغد لن أعاود الحديث فى هذا الشأن .

كيتى بل : [تلثم يده] آه ! لقد عدت إلى ما أعهده فيك ، وإنك لإنسان كريم ! فكن كريماً على الدوام !

چون بل : حسنا . حسنا . لاتنسى الغد [يخرج] .

كيتى بل : [وحدها] ليت شعرى ، لِمَ لمت نفسى على
احتفاظى بالكتـــاب حينما لمست يدى يد
زوجى ؟ إنه صوت الضمير ، وحاشا للضمير
أن يخطئ التقدير [كالحالة] سأعيد إليـــه
الإنجيل ، سأعيده [تغادر المكان فى خطى وئيدة]

(ستار)

نفس المكان

المشهد الأول

الصديق – شاترتون

شاترتون : [يدخل مهرولا ، كأنما ينجو بنفسه] هانحن
أولاء نأوى أخيراً
إلى مرفأ عاصم !

الصديق : هل مسّك الخبل يا بنى ؟

شاترتون : إننى أعى تماما ما أفعل .

الصديق : ولكن لِمَ عدت هكذا بغتة ؟

شاترتون : [مضطربا] أتظن أنه رآنى ؟

الصديق : إنه لم يعرج بحصانه يمنة أو يسرة ، ولم أره يلتفت مرة واحدة لقد كان سايساه يتبعانه ركضا ، ولكن لم تتحاشى هذا الشاب ؟

شاترتون : أموقن أنت أنه لم يعرفنى ؟

الصديق : لو لم يكن القسم شيمة الكفار لأقسمت لك على ذلك .

شاترتون : الآن أتنفس الصعداء ، إنك تعلم تماما أنه من صحبي واسمه اللورد تالبوت :

الصديق : ولِمَ تعير الأمر كل ذلك الاهتمام ، وليس الصديق أكثر ضراً من سائر الناس ؟

شاترتون : [يمشى فزعا بخطى واسعة] وهل يمكن أن يصيبنى ما هو أكثر ضراً من رؤيته لى ؟ إن ذلك معناه كشف مكمنى ، واضطراب أمنى ، وإذاعة اسمى فى هذه الدار .

الصديق : يالها من طامة كبرى !

شاترتون : وهل لك علم باسمى كى تحكم على جسامة الأمر ؟

الصديق : إن تخوفك هذا لصبيانىّ ، وإنك لتنفر من النـــاس ، وأخشى أن يحسبك القوم هاربا من قصاص إذا تماديت فى عزلتك .

شاترتون : لم يحق السماء خرجت معك ؟ إننى واثق من أنه أبصرنى .

الصديق : إننى أراه يتردد دائماً على هذه الدار كلما عاد من رحلة صيد .

شاترتون : هو ؟

الصديق : نعم ، هو بعينه ، وبصحبته بعض اللوردات الشبان من أترابه .

شاترتون : ويلى ! لقد كتب علىّ ألا أذوق طعم الراحة من جراء ملاحقة الصحاب !

الصديق : لابد أنك تعس غاية التعاسة حتى قلت ما قلت .

شاترتون : [مازحا] لم تكن بطيئا فى سيرك كما كنت اليوم

الصديق : افعل بى ماشاء لك اليأس . يالك من فتى مسكين ! لم يستطع أى شىء فى نزهة اليوم أن يملأ شعاب فكرك ، لأن الطبيعة خلو من الحياة فى ناظريك .

شاترتون : أتعتقد أن السيدة كيتى على درجة كبيرة من التقوى ؟ يخيل إلىّ أننى رأيت بيدها إنجيلا .

الصديق : [فى صرامة] ذلك ما لم يسبق لى رؤيته . إنها امرأة تهيم بالواجب وتخشى الله . لكننى لا أذكر أننى رأيت فى يدها أى كتاب [يتحدث إلى نفسه] إلام يهدف ؟ وما عساه

جرؤ على التفكير فيه ! لعمرى إننى أوثر أن يموت غرقاً من أن يتشبث بهذا العود !
[بصوت مرتفع] إنها سيدة بليدة الحس لا يهز مشاعرها سوى صغارها حين تداهمهم علة أو يصيبهم مكروه ، إننى أعرفها منذ ولدت .

شاترتون : أراهن بمائة جنيه على أن لقائى اليوم باللورد تالبوت سيجر علىّ البلاء .

الصديق : وكيف يتأتى ذلك ؟

شاترتون : والله لا أدرى ، وسترى أن ما قدرته سيكون . لعمرى إن كانت هذه المرأة قد كلفت بأحد فخليق به أن يخمد أنفاسه بيده من أن يصبو إلى إغرائها ، وإن كان ما يقدم عليه عند ذاك من الفظاعة بمكان ، أو ليس كذلك ؟

الصديق : عجباً ، ألا يوجد بين آرائك وأفكارك ما لا يورد موارد البأس ؟

شاترتون : إننى أحس من حولى نُذر كارثة لا مفر منها . ولما كنت حليف الأحداث فلن أحاول صراعها .. سترى بنفسك ، وسيكون منظراً عجباً . يا لشقوتى !

كنت سعيداً قرير العين فى هذا المكان ، لكن العدو لن يدعنى أهنأ هاهنا بتلك السعادة !

الصديق : أى عدو تعنى ؟

شاترتون : القضاء أو القدر ! سمه ما شئت ، فإنى لا أدرى .

الصديق : إنك تنأى بنفسك عن أصول الدين !

شاترتون : [يمضى إليه ويمسك بيده] لعلك تخشى أن أقدم فى هذه الدار على ارتكاب ماحرم الله . ألا فاطمئن بالاً ، فأنا كالأطفال لايخشى لهم بأس ، أما رأيت فى حياتك يا سيدى الطبيب ، مصابين بالجذام أو الطاعون فتمنيت أول ما تمنيت إبعادهم عن منازل الأهلين ؟ أبعدنى إذن يا سيدى ، أعرض عنى أو دعنى وحدى ، فحرى بى أن أشرد بنفسى عن سائر الخلق حتى لا أنقل إليهم عدوى الشقاء !

[تسمع فى الخارج قعقعة سياط إشارة إلى نهاية الصيد]

انظر كيف يجدّ القوم فى إثر الخنزير الشارد !

المشهد الثانى

شاترتون — الصديق — چون بل — كيتى بل

چون بل : [إلى زوجته] لقد أسأت صنعا لأنك لم تخبرينى بأن نزيلنا من ذوى المكانة .
[يحضر خادم الشاى]

كيتى بل : أصحيح ما تقول ؟ لم أكن أعلم ذلك .

چون بل : إنه من علية القوم . لقد ذكر لى اللورد تالبوت أنه صديق له ، وأنه رجل مرموق لا يودّ أن يكشف عن ذاته أحد .

كيتى بل : يا لله ! إنه ليس برقيق الحال كما كنت أظن . لقد أثلج صدرى ما سمعت ، لكننى لن أحادثه على أية حال وسأمضى لسبيلى .

چون بل : بل ابقى ، ابقى وادعيه لتناول الشاى مع طبيبنا ومعنا كأسرة واحدة ، فذلك مما يغتبط له اللورد تالبوت . [يذهب للجلوس إلى اليمين على مقربة من مائدة الشاى]

الصديق : [إلى شاترتون وقد هم بالانصراف إلى غرفته] لاتنصرف ، لا تنصرف . إنهم يتحدثون عنك .

كيتى بل : [إلى الصديق] هل لك أيها الصديق ، أن تتفضل بسؤاله إن كان يرغب فى تناول الغداء مع زوجى وطفلى ؟

الصديق : لقد أخطأت فى دعوته ، فإنه يضيق بالمآدب .

كيتى بل : ولكن زوجى يريد ذلك .

الصديق : وإرادته سامية ! [إلى شاترتون] إن السيدة تدعو نزيلها إلى الغداء ، وترغب فى أن يتناول الشاى مع الأسرة هذا الصباح . [بصوت خافت] لا ينبغى لك أن تلبى الدعوة فما أقدمت على ذلك إلا إذعانا لمشيئة زوجها أما هى فلا تستريح إلى ذلك .

چون بل : [جالساً يقرأ صحيفة ، ويوجه الحديث إلى كيتى] هل دعوتيه ؟

كيتى بل : إن الطبيب يحدثه فى هذا الشأن .

شاترتون : [إلى الصديق] إنى مضطر إلى الذهاب إلى غرفتى .

الصديق : [إلى كيتى] هو مضطر إلى الانسحاب إلى غرفته .

كيتى بل : [إلى زوجها] إن السيد مضطر إلى الانسحاب إلى غرفته .

چون بل : هذا ضرب من الكبر . أيحسب أن تلبيته

الدعوة يضفى علينا شرفا كبيرا !

[يستدبرهم ويواصل القراءة]

شاترتون : [إلى الصديق] ماكان على أن أقبل . فإن دعوتهم لى من قبيل الإشفاق علىّ .

[يلاجه إلى غرفته والصديق يتبعه ويحتجزه ، وهنا يحضر الخادم الطفلين ويجلسهما إلى المائدة . يتخذ الصديق مكانه فى الوسط ، عن يمينه كيتى وعن يساره چون بل مستدبرا الغرفة . أما الصغيران فيجلسان على مقربة من والدتهما] .

المشهد الثالث

نفس الأشخاص — لورد تالبوت — لورد لودردال — لورد كنجستون — ثلاثة آخرون من اللوردات الشبان فى ملابس الصيد .

لورد تالبوت : [ثملا بعض الشىء] أين هو ؟ أين هو ؟ ها هو ذا زميلى ! ها هو ذا صديقى ! ماذا تفعل هنا بحق الشيطان ؟ هل اعتزلتنا ؟ هل أعرضت عنا ؟ هل أنهيت ما بيننا ولا تود أن ترى أحداً منا ؟ ألأنك بلغت الآن ذرا المجد تتنكر لخلانك ؟ أشهد أنى

طائفة المتطهرين[1] (البيوريتان) أليس
كذلك ؟ هات إذن يدك فى يدى ! ماذا
تمنعك ، أن تصافحينى ؟ لولا
أنك من العفيفات المطهرات لأوصيتك
خيراً بصديقى !

چون بل : أجيبى سيدى اللورد يا كيتى . معذرة
يا سيدى ، فإنك عليم بمبلغ خجلها
[إلى كيتى] كونى حفية بصديقه .

كيتى بل : لا ينبغى لسيدى اللورد أن يساوره أدنى
شك فى مدى اهتمام زوجى بمن يتفضلون
بالسكنى لديه

چون بل : لقد بلغ بها النفور إلى حد أنها لم تحدثه مرة
واحدة ، هل تصدق ذلك : مرة واحدة
منذ سكن لدينا من ثلاثة شهور !

لورد تالبوت : تباً له من حياء ! ينبغى أن تبرئها منه
يا سيد چون بل ؛ فما هو بخلق مستحب .
هيا يا شاترتون ، اشفها من دائها أنت
أيضاً بحق الشيطان !

الصديق : [دون أن ينهض] أيها الفتى ، منذ حللت

---

(١) تعتقد هذه الطائفة أن مجرد لمس المرأة لرجل غريب عنها خطيئة . (المترجم)

هذا المكان من خمس دقائق لم تفه بكلمة إلا كانت جديرة بألا تُقال .

لورد تالبوت : ما هذا ؟ ما هذا الحيوان المتوحش ؟

چون بل : عفوك يا سيدى ، إنه من جماعة الأصدقاء (الكويكرز) [ضحك فى مرح]

لورد تالبوت : أصحيح ما تقول ؟ وافرحتاه ! من جماعة الأصدقاء ؟ [يدقق النظر فيه] أيها الرفاق ، ها كم ذى قنيصة لم نعمل بعد على اصطيادها [يقهقه اللوردات]

شاترتون : [يمضى مسرعاً إلى اللورد تالبوت ويحدثه بصوت خافت] چورچ ، كل ما صدر منك هو لغوٌ لا يتفق وخلقى ، وأنت أعلم الناس به . . . تذكر تلال « بريمروز »[1] وسوف يكون لى معك حديث آخر حين تعود من رحلة الصيد !

لورد تالبوت : [فى ذعر] إذا كنت لا تزال على عهدك مولعاً باللهو بغدارتك فلك ما تشاء ، على أننى كنت أظن أنى أبعث السرور والمرح فى نفسك ، فهل أتيت أمراً إدّاً ؟ صحيح

---

(١) يشير إلى مبارزة حدثت بين شاترتون ولورد تالبوت . وقد انتصر فيها شاترتون .

ما تعلمت شيئاً مجديا فى أكسفورد سوى الملاكمة ، ولكن ذلك لايحول بينى وبين صداقتك . أيها السادة ، أقدم إليكم صديقى العزيز . . . . .

شاترتون : [محاولا مقاطعته] سيدى اللورد ! . . . .

لورد تالبوت : صديقى شاترتون .

شاترتون : [يشد على يده فى جد] چورچ ! چورچ ! ألا تزال على عهدك مفلوت اللسان !

لورد تالبوت : وهل فى ذلك ما يضيرك ؟ إليكم صاحب القصائد التى كان لها صدى كبير . لقد زاملته فى الجامعة أيهـا السادة ، وأشهد أنى لم أرتب يوماً فى قريحته الملهَمة . ما أبرعك من مناور ، فقد عرفت كيف تصيدنى ! — إليك يا عزيزى ، أقدم اللورد لودردال واللورد كنجستون ، وهمـا يحفظان عن ظهر قلب ما نظمتـه عن هارولد ، او رغبت فى تناول العشاء معنا فستطيب لك صحبتهما ، وأقسم لك أنهما ينشدان الشعر كما كان ينشده «جاريك»[1] .

---

(١) جاريك : ممثل إنجليزى مشهور (١٧١٦ — ١٧٧٩) عرف بتمثيله للأدوار الكبرى فى مسرحيات شكسبير .

إن صيد الثعالب لا يروقك ، وإلا كنت أعرتك فرسي ربيكا التي ابتعتها من والدك ، وعلى كل أنبئك بأننا قادمون جميعاً للعشاء هنا بعد انتهاء الصيد . موعدنا المساء ، وسوف يحلو لنا اللهو والسمر . يا للشيطان ! إنك ترتدي السواد !

شاترتون : [في حزن] نعم ، حداداً على أبي .

لورد تالبوت : آه ، لقد نسيت . ولكنه كان قد بلغ أرذل العمر ، فماذا كنت تنتظر ؟ هأنتذا قد أصبحت من الوارثين .

شاترتون : [في مرارة] نعم ، أصبحتُ وارثاً لكل ما بقي له !

لورد تالبوت : يقينا إذا بسطت يدك ها هنا بسخاء على غرار ما كنت تفعل أيام أكسفورد فستغدو مرموقاً رفيع المنزلة . ولا يفوتك أنك كنت في تلك الأيام تضيق بالناس إلى حد كبير ، ولكنْ ماذا أقول وقد أصبحت أنا نفسي الآن على شاكلتك . أواه ، إنني أحس بانقباض شديد ، ولكن لا بأس ، فلن يلبث ما أعانيه أن يزول في غضون ساعة أو ساعتين .. هاكم السيدة كيتي ، إنك من

الصديق : لن أبرح مكانى !

[ينصرف الجميع ، ويبقى الصديق جالساً وسط المسرح ، بينما شاترتون وكيتى بل واقفين صامتين فى حين

المشهد الرابع

شاترتون — الصديق — كيتى بل

الصديق : [مخاطباً كيتى بل — يتناول يد شاترتون اليسرى ويضع يده على قلب الشاب] إن القلوب الفتية المفعمة براءة ونقاء لا قبل لها بإخماد ما يضطرم فيها من سخط ينشأ من مجرد رؤية الناس . أى ولدى ، أى ولدى المسكين ، لقد غدا كلفلك بالعزلة خطراً عليك ، فإن دوام العيش فى أجوائها يحول دون تحملك لأرق النسمات تأتيك من خارجها . إنما الحياة الدنيا كيم عاصف يا صديقى ، ينبغى أن نروض النفس على أن نمخر عبابه ! أوَ ليس مما يثير الأسى يا سيدتى ، أن يلتمس من كان فى سنه مرفأ عاصما ؟ سأمضى الآن وأفسح لك المجال كيما تحدثينه وتلومينه .

من فرائها ثوباً ثميناً . هيا لتشهدنا ونحن منصرفون . تفضل يا لودردال ، تفضل . و حميعاً هذا المساء ، اللهم إلا إذا [illegible] ربيكا عنقى !

چون بل : إنى سـ [illegible] السعادة بالتشرف بمعرفتك ياسيد شاترتون [يشد على يده فيكاد يخلع كتفه] إن دارى بأسرها طوع أمرك . [إلى زوجه كيتى بل ، وهى تهم بالانسحاب] تحدثى بالله قليلا إلى الشاب پاكاترين . ينبغى أن نؤجر له جناحا أكثر رواء وأغلى ثمنا .

كيتى بل : إن أطفالى فى انتظارى ،

چون بل : ابقى ها هنا وكونى لطيفة . إننى آمرك بذلك

شاترتون : [إلى الصديق] لنبرح هذا المكان . فلشدما آلم من أن تقتحم صومعتى ويكدر صفوى وتنزاح أستارى ، فتنساب الأضواء الصاخبة إلى سكون ليلى ! لنخرج من هنا . لعمرى ألم أنبئك بهذا من قبل ؟

چون بل : إننى أريدك أيها الطبيب ، دع السيد لزوجى ؛ لأنى فى مسيس الحاجة إليك . لدى ما أحدثك به ، وأود أن أصلح ذات البين بينك وبين سيدى اللورد .

أننا احتسينا بعض الأقداح صرفاً مع تباشير الصباح ، ولكن ما الذى قلته ؟ لقد أردت أن أؤلف بينك وبين جميع الحاضرين ، خبرنى بربك ، أما أتيت أنت هنا من أجل السيدة الجميلة ؟ إنى أعتقد ذلك .

شاترتون : يا للسموات والأرض ! سيدى اللورد ، لا تنطق بكلمة واحدة أخرى .

لورد تالبوت : هيا بنا يا سادة . لا شك أنه منحرف المزاج . وأنت ياسيدتى ، لا تقدمى إليه الشاى الأخضر حتى لا تزيدى من حدة توتره فيجدّ فى مصرعى هذا المساء !

كيتى بل : [تحدث نفسها] ربّاه ، ما أوقح حديثه معى

لورد لودردال : [يتقدم من شاترتون ويشد على يده] والله إنى مغتبط لمعرفتك ، فقد أطربنى شعرك .

شاترتون : هل أطربك يا سيدى اللورد ؟

لورد لودردال : حقيقة نعم ، ويسرنى أن أراك تقيم هنا . لقد كنت ولا شك أكثر براعة من تالبوت وفى ذلك ما يربحنى الرهان !

لورد كنجستون : أجل ، لقد أجزل هباته للزوج ، ولكنه لن يظفر بشىء من الفاتنة كاترين . بماذا تدعى ؟ . . . كيتى ؟

شاترتون : نعم يا سيدى اللورد . إنها تدعى كيتى وهو اختصار اسمها الحقيقى .

كيتى بل : [تحدث نفسها] إن هؤلاء الشبان لا يكفون عن التشهير بى ولا سيما أمامه !

لورد كنجستون : فى مقدورى أن أؤكد أنها كانت كلفة به ، ولكنك على ما أرى قد حللت منزلته من فؤادها . ومهما يكن من أمر فإن چورچ فتى طيب القلب ، ولن يضمر لك أية حفيظة من جراء ذلك . يبدو أنك تعانى مرضاً !

شاترتون : نعم ياسيدى اللورد ، وقد اشتدت وطأته الآن .

لورد تالبوت : كفى أيها السادة ، كفى ، ولاتجسموا الأمور .

[يدلف إلى القاعة سايسان]

السايس : إن خيلك معدة ياسيدى اللورد .

لورد تالبوت : [يربت على كتف چون بل] لامكان للأنبذة الفرنسية أو الإسبانية سوى دار زوجتك الحسناء التقية ، ياعزيزى الطيب چون بل ونحن نريد أن نتذوق تلك الأنبذة حين نعود من الصيد ، ولك أن تحسبنى أخرق إن لم أوافك بعشرة ثعالب تصطنع لزوجك

كيتى بل : [فى اضطراب] لا يا صديقى لا . أناشدك الله أن تبقى ، فسيغضب چون بل إن لم يجدك ثم ألا ترى أن السيد يتلكأ فى اللحاق بأصدقاء طفولته ، وإنى لأعجب لتخلفه عنهم .

الصديق : لا شك أن ضجيجهم قد أزعجك يا ابنتى العزيزة إزعاجاً شديداً .

كيتى بل : آه ! ليته ضجيجهم فحسب ، وإنما مآربهم أيضاً ! أما يعلم السيد ما يسرّون ؟

شاترتون : [يحدث نفسه] يا لله ، إنها سمعتهم وآلمها قولهم ! لعمرى إنها امرأة أخرى تماماً .

كيتى بل : [إلى الصديق بشعور لم تستطع كبته] لم أجرّب بعد حياة العزلة تماماً ، وإن كنت أحسها فى نفسى إحساساً جليًّا .

الصديق : [إلى كيتى بل] لا تكونى مرهفة الحس لمثل هذه الحماقات .

كيتى بل : هذا كتاب وجدته فى يد ابنتى . فسل السيد إن كان الكتاب له .

شاترتون : لقد كان لى فيما مضى ، ويسرنى الآن أن يقع فى يدى .

كيتى بل : [تحدث نفسها] يخيل إلىّ أنه أخذ الأمر مأخذ الجد . يا لله ! لم أعد أجرؤ على رد

الكتاب إليه ولا على الاحتفاظ به !

الصديق : [يحدث نفسه] ها هى ذى تواجه مزالق الحيرة . [يرى أمارات الحيرة يميناً ويساراً ، فيضع الإنجيل فى جيبه ، ثم يتحدث إلى شاترتون] اسكت ناشدتك الله ، فإنها توشك أن تنفجر باكية .

كيتى بل : [تستعيد ثباتها] إن رفاق السيد فتية معى على جانب كبير من المرح ، ولا شك عندى أنهم يتصفون أيضاً بالطيبة !

الصديق : لا يجمل بنا أن نعتب عليه ما صنعوا فإنه لم يسع إليهم .

كيتى بل : إننى على يقين بأن السيد شاترتون لم يكن يتوقع قدومهم .

شاترتون : إن حضور عدو مبين عندى ، لم يكن ليصيبنى بمثل ما أصابنى قدومهم من بلاء . ثقى يا سيدتى فيما أقول .

كيتى بل : يبدو أنهم يعرفون السيد شاترتون حق المعرفة ، بينما نحن هاهنا لا نعرف عنه سوى القليل !

الصديق : [إلى شاترتون بصوت خفيض] آه ! يالهم من حمقى ! لقد طعنوها فى قلبها .

شاترتون : [إلى الصديق] وفى قلبى أنا أيضاً يا سيدى !

كيتى بل : إن السيد شاترتون يعرف خلالهم كما يعلمون هم مراميه ، ولكن بِمَ يفسرون اعتكافه بين ظهرانينا ؟

الصديق : [ناهضاً] ليخزى الله إلى الأبد من يسمّون بخفاف الظل ، وما هم إلا جراد منتشر بين الحقول يأتى على الأخضر واليابس ! كم اقترفوا من آثام فى طرفة عين .

شاترتون : [يدعو الصديق إلى الجلوس] أستحلفك ألا تنصرف حتى أعلم ما يثير حفيظتها علىّ ، فإنى قلق لذلك غاية القلق .

كيتى بل : لقد عهد إلى زوجى أن أعرض على السيد شاترتون غرفة أخرى أكثر ملاءمة من غرفته .

شانرتون : ما من بقعة أخرى تعدل غرفتى هذه ملاءمة لبلوغ مآربى .

كيتى بل : ولكن المرء إذا لم يفصح عن مآربه ؛ فإنه يثير فى النفوس على طول المدى فزعاً يفوق ما استثاره من اهتمامهم بادئ الأمر ، وأنا...

شاترتون : أنتِ ماذا ؟

كيتى بل : يخيل إلىّ ...

الصديق : ماذا تريدين قوله ؟

كيتى بل : يخيل إلىّ أن هؤلاء اللوردات الشبان على

حق فى دهشهم وحيرتهم من هجره لهم ؛
ليخفى ذاته وحياته فى أسرة متواضعة
كأسرتنا .

الصديق : [إلى شاترتون] لاتجزع ياصديقى ، فهى تعنى
أنه لم يكن فى مظهرك ساعة قدومك ما يوحى
بأنك الرفيق الثرى لهؤلاء اللوردات الشبان
الموسرين .

شاترتون : [فى حدة وإصرار] لو أن أحداً هاهنا سألنى
عن ثروتى ، وعن اسمى ، وقصة حياتى لما وطئت
قدماى هذه الدار . ولو سألنى اليوم عن
ذلك سائل لتركتها فوراً .

الصديق : إن صمتنا مصدره الكبرياء ليتيح للغير سوء
تأويله كما ترى .

شاترتون : [يتأهب للجواب ثم يحجم عنه ويصيح] لعمرى هل
يضير الشهيد أن يسام عذاباً جديداً ؟
[ينصرف هاربا]

كيتى بل : [مرتجفة] يا إلهى ! لم فر هكذا ؟ أأبادله
الحديث لأول مرة فيفعمه كلمى هماً وكمداً ؟
ترانى مسئولة عن ذلك أيضاً ؟ لم جاء هنا ؟
لست أدرى ! أريد أن أقف على السبب
فإن جميع أهلى مشفق عليه ومشفق منه .

وماهى جريرتى أنا ؟ بربك أيها الصديق ، لِمَ أتيت به إلى دارى ولم تولّه قبلة أخرى ؟ ويلى ، ليتنى ماخرجت للقائهم ، ليتنى لم أرهم إطلاقاً .

الصديق : [فى تبرم و[illegible] بك أن تتحدثى بما يجول فى خاطرك إلى أحد سواى ، فإنى إنسان لا يأسى ولا ينفعل . أما أن توجهى إليه مثل هذا الحديث فيالها من غلطة !

كيتى بل : على رسلك ياصديقى أما سمعت قولة أولئك الشبان ؟ ليت شعرى ، كيف حدث ما حدث ؟ وكيف استباحوا لأنفسهم أن يعصفوا بحياة باركها الله ؟ حدثنى بربك ، كرجل ، وكرجل يختلف عن هؤلاء المتعطلين الأشرار ، رجل حصيف رضى الخلق ، رجل يؤمن بالله وبالروح ، حدثنى ياصديقى ، أنى للمرأة منا أن تعيش وأين ينبغى لها أن تتوارى ؟ لقد عشت العمر زاهدة فى الكلام ، أغض الطرف على استحياء وأتشح بنقاب العزلة ؛ فإذا هم يهتكون النقاب ! كنت أظن أننى مجهولة لديهم ، فإذا بى مضغة فى أفواههم

كأنني إحدى غوانيهم ! كنت محل تجلة وإكبار ، فإذا في هذا الهدف مقامرة ورهان ! بم حصنني إذن تعلق الصغار بحجبي دائماً كالملائكة الحارسة وبم حصنني ؟ كيف تكون المرأة الصالحة

يارب إن لم أستطع أن أكونها ، وإذا كان في مجرد روايتها عاثرة ما يكدر حرمتها واللهو ببسيرتها كما يلهو الغلمان بالكرة [يخونها صوتها فتبكي] أي صديقي ، ناشدتك الله أن تعمل على ألا تطأ أقدامهم داري .

الصديق : ومن هم ؟

كيتي بل : هم جميعاً ، جميع الناس .

الصديق : وكيف السبيل إلى ما تنشدين ؟

كيتي بل : وهو أيضاً ... نعم هو [تنخرط في بكاء طويل]

الصديق : لعلك ترومين قتله ! هل لك أن تنبئيني أولا ما هي جريرته ؟

كيتي بل : [في انفعال] ربي ! رحماك ياربي ! أأقتله أنا ؟ وأنا التي أود .... مولاي ! يا من له أصلي ليلا ونهاراً ، أنت وحدك تعلم إن كنت أروم قتله . ربي أناجيك فهل أنت

سامعي ؟ لقد نشرت لك قلبي فهل طالعت ما فيه ؟ فإذا وعت عينك البصيرة سطوره فمن مخبرى أننى لستُ — يا إلهى — على ضلال ؟ أى صديقى ، إن فى صدرى ما أودّ الإفصـــاح عنه ، ولكن ... لهف نفسى ، لو كان أبى حياً ! [تأخذ يد الصديق] نعم ، لقد مرت بى لحظات تمنيت فيها لو كنت كاثوليكية حتى تتاح لى فرص الاعتراف ، ولكن حسبى النجوى — نجوى خالقى — لتكون وسيلة لنجاتى ، وما أشد حاجتى إليها !

الصديق : لِمَ لا تلجئين إلىّ يا ابنتى إذا قصر الضمير والتأمل عن هديك ؟

كيتى بل : حسناً هل لك أن تفسر لى ذلك الاضطراب الذى ألقانى فى عبابه هذا الشاب ، وتلك الدموع التى تسكبها عيونى بالرغم منى لرؤيته ، نعم لمجرد رؤيته ؟

الصديق : أيتها المرأة ! أيتها المرأة الضعيفة ! ناشدتك الله أن تكفكفى دمعك ، فها هو ذا قادم إلينا .

كيتى بل : رحماك يا إلهى ! إن وجهه لتعلوه غبرة !

شاترتون : [عائدا كالمجنون عارى الراس يذرع القاعة جيئة وذهابا ، ويتحدث أثناء سيره دون أن يرى أحداً] ومع ذلك ، ومع ذلك ، فليس لهم فيما يمتلكون أكثر مما لى فى هذه الغرفة الصغيرة ، إنما الحياة كلمة ! يمكن الإبقاء عليها أو فقدها فيما لايتجاوز مداه ربع الساعة ! وهل بيننا من يملك من البسيطة أكثر من ستة أقدام ، هى مايسع جثمانه كما قال العجوز « ويل » ؟ سأعيد إليك غرفتك متى تشائين ، فإنى أبتغى مقرا يصغرها ! وإن كنت أنتظر ما تسفر عنه رسالة بعثت بها . ولكن لنكفّ عن الكلام . [يرتمى على مقعد]

الصديق : [ينهض من مكانه ، ويذهب إلى شاترتون ، يمسك برأسه ويخاطبه بصوت مبحوح] كفاك كلاماً ياصديقى ، وهدئ من ثورة رأسك المحموم ، دع سحائب غضبك تمر فى سكون ، ولا تفزع هذه السيدة الغريبة عنك .

شاترتون : [يفيق فجأة حينما يسمع كلمة « الغريبة » ويقول فى سخرية مرتعشة] لقد غدا كل من يسعى على الأرض غريباً عنى . إذا مثلت أمام امرئ فحتم علىّ تحيته دون أن أنبس

بكلمة ، فإذا ماتكلمت فتلك جرأة تجافى اللياقة ينبغى أن ألتمس الغفران عنها . على أنى لا أبغى من إقامتى فى هذه الدار سوى قدر من راحة البال وفسحة من الوقت حتى أنتهى من بضع صفحات ، يستنجزون نظمها مثلما يستنجز صانع الأثاث نجارا يعدّله رقائق من الخشب تكل من صقلها السواعد. ما أنا سوى صانع كتب ليس غير ، فلا حاجة بى إلى مصنع أفسح من مصنعى هذا . لقد رقّ لى جانب السيد بل حينما لمس صداقة اللورد تالبوت لى ، فغنى عن البيان . مالصاحبى هاهنا من قدرة على غزو القلوب ، أما صداقته تلك ؛ فلا قيمة لهـــا عندى ولا وزن ، فهى تعتمد على فكرة بالية عفى وعن ثراء كان ، ثم عفا الدهر عليه ، فكرة سأنتزعها من رأسه بكلمة واحدة . ألا فليعلم أن أبى قد حمل معه إلى القبر تراث جاه وعز تليد ، كان يبعث الناس على المبالغة فى احترامى والحفاوة بى . لقد راح هذا الزمان وتولى ، ولست اليوم سوى صانع كتب ! وداعا ياسيدتى

وداعا ياسيدى . إننى أضيع من وقتى الكثير . فإلى العمل ! إلى العمـــل !

[يرتقى السلم بخطى واسعة ويغلق على نفسه الغرفة]

المشهد الخامس

الصديق — كيتى بل [واجفة]

الصديق : هل ملّيت رعبا ياكيتى ؟

كيتى بل : صدقت والله .

الصديق : وأنا كذلك .

كيتى بل : أنت كذلك ؟ أنت يامن عرفت باتزان العاطفة وثبات الجنان ؟ إلهى ، ماذا يجرى هنا ، ولست أستطيع له فهماً ؟ إن هذا الشاب قد ضللنا جميعاً . تسلل إلى ظهرانينا كفقير محروم ، فإذا هو ثرى مترف ، أو لم يحدثه الشبان الأثرياء ، حديث الأنداد ؟ ما الذى جاء به هنا بحق السماء ، وماذا يبتغى من استثارة العطف عليه ؟ ... ومع كل ذلك فجميع ماذكره ينضح بصدق العاطفة ، كما تشف نفسه عن تعس شديد .

الصديق : خير له أن يموت .

كيتى بل : يموت ؟ ويحى ، ولماذا يموت ؟

الصديق : لأن الموت أفضل من الجنون .

كيتى بل : وهل تعتقد ...؟ إلهى إن الشجاعة لتخونى

[ترتمى على مقعدها]

الصديق : أعتقد أن العقل الجبار لا يمكن أن يقاوم ما يلقاه من شقاء . أود أن أفضى إليك يا ابنتى بكل ما يدور بخلدى . ما من ملك فى السماء يبزك نقاء ، وما حنت مريم العذراء على وليدها بنظرة تفوق نظرتك طهرا ، وبالرغم من ذلك فقد أشعت دون قصد فيما حولك شرًّا كثيراً .

كيتى بل : يا لقدرة السماء ! أهذا ممكن ؟

الصديق : أعيرينى سمعك ناشدتك الله . كيف يسفر الخير عن الشر ، وتنشأ الفوضى من النظام نفسه ؟ ذلك مالا تستطيعين تأويله ، أليس كذلك ؟ حسنا ، اعلمى يا ابنتى العزيزة أن نظرتك الحانية ، تلك النظرة التى أوحى بها العطف أجمل الفضائل وأقربها إلى الله قد تكفلت بذلك ! إن هذا الشاب الذى نضجت نفسه قبل الأوان فى أتون الشعر

قد وهب قلباً ساذجا كقلوب الأطفال .
لقد فنيت أسرته ، فراح يفتش — دون أن يفضى بذلك إلى ذات نفسه — عن أسرة يأوى إليها . وكأنى به قد أنس إلى حياتك بالقرب منه ، أو ربما أنس إلى الوحى تلهمه طلعتك وروعة أمومتك . هذا .. إلى أن السلام الذى ينشر لواءه فى ربوعك كان خطراً على هذه النفس الحالمة خطر النعاس بين زهرات الزنبق البيضاء . فلا تثريب عليه يا ابنتى إذا قرت عينه بمالقى فى رحابك من رعاية كريمة ، وهو من ألف الناس جميعاً يشيحون عنه . وأخيراً ، ولما غدت تلك الحياة المترعة بالعطف الصامت العميق حياته . أتستبيحين لنفسك الحق فى انتزاعها منه ؟!

كيتى بل : ويحى ، أتؤمن إذن بأنه لم يرم إلى التغرير بنا ؟

الصديق : حنانيك يا ابنتى ! فما بجاوز الفتى الثامنة عشرة من عمره فهو دون « لوفليس »[1]

(١) لوفليس إحدى شخصيات قصة « كلاريس هارلو » للكاتب الإنجليزى رتشاردسون ، وهو شاب مجرد من القيم الأخلاقية ، ولا هم له إلا فتنة النساء والتغرير بهن (المترجم)

سناً . ثم ألا تقرئين على جبين شاترتون حياء البائسين ؟ لقد سبرت حياءه فألفيته بعيد الغور .

كيتى بل : واحسرتاه ! لا شك فى أنه ألِمَ غاية الألم من حديثى إليه منذ لحظة !

الصديق : أعتقد ذلك يا سيدتى .

كيتى بل : أتخاطبنى بقولك ياسيدتى ؟ لا تغضب علىّ . آه لو تعلم ماذا فعلت من أجله وماذا كنت مزمعة عمله !

الصديق : يهمنى أن أعلم .

كيتى بل : لقد حجبت عن زوجى قدراً من ماله دفعته عن السيد شاترتون . لم أجرؤ على مطالبته بهذا المبلغ ، ولم أستوفه منه بعد . ولما كان زوجى قد فطن إلى ما نقص من ماله . فقد كنت عازمة الآن على الحديث إلى الشاب فى هذا الشأن ، آه ! إننى لا أدرى ياسيدى ، بأى لسان أشكرك ، فلقد جنبتنى ارتكاب ذنب لا يغتفر ! لو أننى أقدمت على ما أزمعت عليه لكان عملى جرماً دون شك ، أليس كذلك ؟

الصديق : وإنه ليؤثر أن يجرم فى حق نفسه على أن يقعد عن تلبية ماتطالبينه به، فإن عزة النفس التى أعرفها فيه لتدفعه إلى ذلك . فلنظله ياصديقتى برعايتنا ، فهو يعـانى مرضاً نفسياً صرفاً قلما يستطاع البرء منه ، وكثيراً ما يعدى . إنه مرض خطير يداهم بصفة خاصة ذوى النفوس الفتية المرهفة حديثة العهد بالحياة . تلك النفوس التى فطرت على حب العدل والجمال ، فلما انطلقت إلى دنيا الناس تعثرت فى كل خطوة من خطاها بمـا يعتور مجتمعنا السقيم من معايب وشرور ، هذا المرض هو الضيق بالحياة والحنين إلى الموت ، إنها الرغبة العنيدة فى الانتحار !

كيتى بل : ليغفر الله لهُ ، أصحيح ما تقول ؟

[تخفى رأسها لتبكى].

الصديق : لقد أطلقتُ على رغبتهم هذه صفة العناد ، فقلما يعدل هؤلاء التعساء عما حزموا أمرهم على بلوغه .

كيتى بل : أواثق أنت من أنه عقد العزم على الخلاص من حياته ؟ وهل ما قلته صحيح ؟ بربك

حدثنى بكل شىء ، فإنى لا أريد أن يموت .
لهف نفسى ! ماذا جناه وماذا يبغيه شاب
فى ميعة الصبا أشربت نفسه صفاء الملائكة
وبراءة الأطفال ، ففاضت نقاءاً وطهراً !
وماذا دهاه حتى يقدم على كبيرة الكبائر ،
تلك الجريمة النكراء التى قد يتردد المسيح
ذاته فى التجاوز عنها ، كلا ، لن يتم له ماأراد
ولن أدعه يقتل نفسه . ما الذى يعوزه ؟
لئن كان المال فسأدبره له ، وسنجد الوسيلة
للحصول عليه . إليك حليتى التى لم
تطاوعنى النفس يوماً على التجمل بها .
خذها ياسيدى ، وبعها جميعاً . يالله ، أيقتل
نفسه فى دارى وعلى مشهد منى ومن
صغيرىّ ؟ بعها ، بعها ، وسأقول فى
تفسير ذلك ما يعن لى ، وسأعاود حجب
بعض المال عن زوجى . نعم ، سأقارف
بدورى معصية أخرى ، سأكذب ، ذلك
كل ما فى الأمر .

الصديق : هات راحتيك يا ابنتى ، هات راحتيك
لألثمهما . [يقبل راحتيها مضمومتين] أرى
معصيتك هذه بريئة من الإثم ، وغدا

سوف تنشر أخواتك القديسات إزارهن حجاباً حول كذبتك الراحمة . أما حليك فاحفظيها عليك ، فإن صاحبنا يؤثر الموت عشرين مرة على أن يمد يده لمال لم يرثه أو يصبه بعرق الجبين . ومهما يكن من أمر فسأبذل قصارى جهدٍ لا رجاء فيه ؛ لأقلعه عن رذيلته الوحيدة ، تلك الرذيلة الفاضلة ، والسيئة الحسنة ! ألا وهى عفة الفقر .

كيتى بل : ولكن ، ألم يتحدث عن رسالة بعث بها إلى من يؤمل فيه النجدة ؟

الصديق : نعم ، هذا صحيح . لقد غاب الأمر عن فكرى ، ولكن قلبك وعاه . نعم ، وهذه دعامة رحمة سأعتمد عليها فى محاولتى معه [يهم بالخروج] .

كيتى بل : أريد أن أسألك ، ماذا عناه فى حديثه عن اللورد تالبوت حينما قال « فغنى عن البيان ما لصاحبى هنا من قدرة على غزو القلوب » .

الصديق : لا تشغلى البال مطلقاً بهذه العبارة ، واعلمى أن العمل والألم ملآ شعاب ذهنه ، فلم يعد يتسع لصغار تمليه الغيرة الحمقاء ، أو الغطرسة الجوفاء التى فطر عليها الباحثون عن المغامرة .

أما ما يعنيه شاترتون فأعتمد فى تفسيره على الزعم والافتراض . ينبغى أن نفترض أنه يجد تالبوت موفقاً فى وسائله لإغراء كيتى بل ، وأنه يرى من حقه أن يغار من هذا الوضع . ثم لنفترض أيضاً أن سحر الألفة قد استحال فى أعماقه إلى هوى جارف ! لعمرى لو قدر لزعمى أن يكون ...

كيتى بل : بربك كفى ، كفى . لا تسمعنى شيئاً ودعنى ألتمس مهرباً [تفر من أمامه ويداها مطبقتان على أذنيها حتى لا تسمع شيئاً ، ولكنه يطاردها بصوته] .

الصديق : لعمرى لو قدر لزعمى أن يكون صحيحاً ، فإنى أوثر ألا أحول بينه وبين المنون !

(ستار)

الفصل الثالث

غرفة شاترتون — غرفة صغيرة معتمة خالية من وسائل الدفء ، تنم عن رقة الحال وشظف العيش يتوسطها سرير حقير تسوده الفوضى .

المشهد الأول

شاترتون [يحدث نفسه]

[يجلس على حافة السرير ويكتب مستنداً أوراقه على ركبتيه]

يقينا أنها لا تضمر لى الحب ،
وأنا بدورى لا أود أن أفكر فى
هذا الأمر . فإن يدىّ باردتان كالثلج
ورأسى مشتعل كنار موقدة . هأنذا وحدى أواجه عملى . لم يعد الأمر يتطلب التلطف والابتسام ! أحيى وأشد على الأيدى ، لقد تمت هذه الملهاة فصولا لأبدأ مع نفسى ملهاة أخرى !

حتم على إرادتى فى هذه الآونة أن تكون من القوة بحيث تسيطر على روحى وتنفخها تارة فى رفات أعلام أبعثها من أعماق القبور ، وتارة أخرى فى أشباح أناس من نسج الخيال ! وإما أن تنتظر واهمة — إلى جانب شاترتون الذى عصفت به آلام البرد والسقم والجوع — شاترتون آخر تزود بالإشراق والبشر كيما يشيع البهجة فى قلوب الجماهير ، فيتحدث المنافق المستجدى عن الشاعر الملهم الغرّيد . إن رسالة القريض لا تعدو أمرين لا ثالث لهما : فهو إما أن يسكب البهجة فى النفوس ، وإما أن يستدر عطفها ، ومن ثم فعلى الشاعر أن يُنطِق دُمَى مسكينة أو أن يكون هو ذاته من تلك الدُّمى ، ويتخذ من هذه الشعوذة تجارة . عليه أن يفتح قلبه ليعرضه على الملأ ، فإن كان مثخنا بالجراح فيها ونعمت وبيع بثمن غال ! وحبذا قلب مثخن بالجراح ، ولو بقدر ، إنه ليشرى بأغلى الأثمان ! [ينهض] قم يا من خلقه الله وسوّاه ، وتأمل نفسك مرة أخرى على تلك الحال

[يضحك ويجلس ثانية]

[تدق ساعة قديمة دقتين إيذاناً بانقضاء نصف الساعة] لا ، لا ! إن الساعة تحمل إليك النـــذر ، فاعكف على العمل أيها الشقى ! إنك تبدد الوقت فى التفكير العميق ، وأحرى بك أن تقصره على أمر واحد هو ما تعانيه من فقر ، أفهمت ؟ أنت فقير ، وكل دقيقة تصرفها محلقا فى أفاق الخيال هى

دقيقة تستلبها من عمرك ، إنها لدقيقة عقيمة . يا إلهى ! إن الفكر لقيم ، ولكن الكلمة هى التى تدرّ المال وربّ كلمة تساوى شاناً ، أما الفكرة فلا تلقى سوى البوار ! — اغرب عن وجهى أيّها اليأس اللعين ، وأنت أيتها المسكنة ، لاتسعَىْ إلىّ لتستنجزى هلاكى ، إليك عنى وتنكبى طريقى ! لقد غدا اسمى ومستقرى وكل ما يتصل بحياتى خبراً منشوراً ، وإذا حل الغد ولم أفرغ من هذا الكتاب فإنى من الهالكين ، نعم من الهالكين ، نعم هلكت دون أى أمل فى النجاة ! سيلقى القبض علىّ ، وأحاكم ثم يزج بى فى غياهب السجون ! ياله من إذلال مهين ! ويالها من مهمة يندى لها الجبين ! [يكتب] يقينا أن هـــذه السيدة الشابة لن تمنحنى قلبها . حسناً ، ألا أستطيع التخلى عن هذه الفكرة ؟ [سكون طويل] إن مواصلة التفكير فى هذا الأمر معناه أننى لا أملك من الكبرياء سوى القليل . ولكن خبرونى ، لِمَ أتعلق بأهداب الكبر ؟ وعلام الزهو ؟ إنه لا مكانة لى فى أىّ من مراتب الناس ؟ ألا إن ما يظاهرنى لهو إباء فطرى يهتف فى أذنى على الدوام ، ألا أطأطئ الرأس ، وأن أكتم بؤسى عن الناس . ولكن لم يُرتدى المرء مسوح السعداء وهو من السعادة براء ؟ لا شك فى أنه يلتمس بذلك مرضاة النساء ، فنحن جميعاً نصطنع أمامهن ما ليس فينا . ما أشقاهن من مخلوقات مخدوعات ، إذ يحسبننا من ذوى

العروش والتيجان ! أيها الصيت الداوى ، أيها الصيت اللعين ، ما أنت سوى ركيزة نشدّ إليها ، ليتمكن من صفعنا أى عابر جهول ! لكن النساء عادة لا تهفون إلى من ضربت عليهم الذلة والمسكنة من الرجال ، ألا إنهن لعلى صواب ، ولن ترانى — تلك التى يقع بصرها علىّ — خفيض الرأس إطلاقاً . آه ! لو أنها منحتنى قلبهـا !

[تعتريه إغفاءة حالمة يفيق منها بغتة] أمسك براعك أيها الشقى واستنهض إرادتك ! لم استبد بها الوهن ، فاستعصى عليها أن تشعل حماس تلك النفس التى لبثت على الرغم من إثارتها جامدة لا تريم حراكاً ؟ إنه لعمرى لإذلال جديد ، فعهدى حتى اليوم بإرادتى أن تنطلق قبل صاحبها فأعقلها بلجام ، أما الليلة فما بالى أن أراها متعثرة فأهمزها بمهماز ! أيتها النفس الخالدة ، أيتها الآمرة الناهية على الجسد ، أنت يا ذات الجلال ، هل شل قواك هذا الضباب الحزين ، الذى انساب فى غرفتى الخربة ؟ أهكذا أيتها النفس العاتية ، يفى ليقهرك تماماً بعض الأبخرة الباردة ؟

[يضع على كتفيه غطاء فراشه] آه من هذا الضباب الكثيف إنه يلتف بنافذتى كستار أبيض أو ككفن ميت . لقد كان الضباب محيطا على هذه الصورة بنافذة أبى ليلة أسلم الروح .

[تدق الساعة ثلاثة أرباع الساعة] إن الزمن يتعجلنى ، ولم أخطّ على القرطاس حرفا واحدا [يقرأ] هارولد ... هارولد !

أيها المسيح .. ! هارولد .. يادوق وليم . . . ولكن ما الذى يستطيع أن يصنعه من أجلى هارولد ؟ إننى لا أدرى بحق السماء كيف كتبت ما كتبت [يمزق المخطوطات وهو يتكلم ثم يستسلم لنوبة من الهذيان] لقد تظاهرت بالكثلكة ، وقد كنت كاذبا فى ذلك ، ولو كنت كاثوليكيا حقا لجعلت من نفسى راهبا من تلك الفئة التى انخذت من سريرها لحدا لها ، ولكنه سرير يرقد فوقه على كل حال . إن للأنام جميعاً أسرة يأوون إليها ابتغاء الراحة ، أما أنا فلى سرير أزاول فوقه العمل ابتغاء لقمة العيش . [يرفع يده إلى رأسه] تُرى أين المفر ؟ وما هو المصير ؟ إن الكلمة تشدّ الفكرة مهما كانت نافرة مستعصية .. يا للسماء ! أوليس ذلك أمراً يسلم إلى الجنون إنه لحال ترتعد له فرائص أشجع الشجعان . حنانيك يانفسى هدئى من روعك .. حسناً ، لقد أعدت قراءة هذا ... نعم ، إنها قصيدة عارية من الجمال ! كُتبت على عجل ! كُتبت حتى لا أموت جوعاً ! يا للعذاب ! موقعة هاستنج ! شيوخ السكسون ! شباب نورماندیا ! ولكن أهزت هذه الموضوعات مشاعرى حقاً ؟ كلا ... فلِمَ إذن عالجتها ولدىّ الكثير أقوله ممـــا تقع عينى عليه ؟ [ينهض ويمشى بخطى واسعة] أأنفخ ضرام الحياة فى رماد بارد ، بينما كل ما حولى يختلج ويئن ؟ بينما الفضيلة تستصرخ النجدة وتنفطر من فرط النحيب ؟ بينما يستخف بالعمـــل المضنى ويستهان به ؟

بينما يفقد الأمل مرساته والإيمان كأسه ، والإحسان عياله البائسين ؟ بينما القانون داعر كبنات الهوى ؟ إن الأرض لتجأر بالشكوى ، وتطالب الشاعر أن يقتص لها ممن دأبوا على التنقيب فيها بغية استلاب كنوزها وخيراتها ، ويقولون لها : أنت فى غنى عن يدالله .

وأنا . أنا من يحس ذلك ويشعر به ، ألا أهبّ ملبياً النداء ؟ بلى سألبى نداءها وايم الله ! سأركل الأشرار والمرائين بقدمى ، وسأفضح ما قارفه چريميا ميلز ووارتون[1] ! ...

آه ما أتعسنى ولكن ، أما هو الهجاء بعينه ؟ ! تباً لى ، لقد غدوت من زبانية الشر ! [يبكى طويلا بحرقة] . لزام علىّ أن أكتب فى ظلال هذا الضباب الذى يخيم علىّ نافذتى كما خيم ذات ليلة على نافذة أبى ! [يتوقف عن الكلام ، ويتناول علبة سقوط على الخوان] ها هو ذا أبى ، هأنذا أيها الملاح العجوز الطيب القلب ! أيها الربان الصوّال على البارجات . لقد كنت تنام الليل ملء جفنيك ، أما نهارك فسرح قتال . آه ، لم تكن من زمرة المنبوذين الأذكياء ، كما صار إليه ولدك الشقى ! أترى يا أبتى هذه الصفحة البيضاء ؟ إن لم تمتلئ سطوراً فى غد ، فسيلقى بى فى غيابة السجن ، وهأنذا لا أجد

---

(١) طابعان وناشران شككا فى صحة أشعار شاترتون ، غير أن شاترتون الحقيقى مات سنة ١٧٧٠ ، وظهرت الطبعة التى ورد فيها هذا التشكيك سنة ١٧٨٢ .

فى رأسى كلمة واحدة أخطها ، لأننى جائع يا أبتاه ، لقد بعت — كى أمسك علىّ رمقى — تلك الماسة التى كانت تتألق على هذه العلبة غرة لجبينك الجميل . والآن ، ذهبت الماسة وبقى الجوع ، أحس به دواماً مثل ما أحس بكبريائك ينهانى عن ذكره — ولكنك كنت — يا أبتى — شيخاً كثير التجارب ، وكنت تعلم أن المال هو قوام الحياة . ولما كنتَ لا تملك ما تخلفه لى ، فلم بحق السماء أنجبتنى ؟ [يقذف بالعلبة ، ثم يعدو خلفها ، ويركع على ركبتيه ويبكى]

عفوك وغفرانك يا أبتاه ! عفوك وغفرانك يا من جلل الشيب رأسه ! لطالما دللتنى فى حجرك . إن الذنب ذنبى وليس ذنبك ، لقد ظننت أننى شاعر ! أجل إنها غلطتى ! ولكن لتطمئن بالاً ، فلن يجد اسمى طريقه إلى السجن وايم الله ! انظر ، ها هى ذى قنينة الأفيون ، فلئن ألحّ علىّ الجوع فلن أسدّ رمقى وإنما سأروى غلتى ! [يضج بالبكاء على العلبة التى حملت صورة أبيه] رباه ، إننى أسمع من يرتقى السلم الخشبى متثاقلا ، فلأخفينّ هذا الكنز ! [يخفى قنينة الأفيون] ولكن لِمَ أخفيه ؟ أو لست حراً ، بل أكثر حرية مما كنت عليه فى أى وقت مضى ، إن كاتون[1] لم يخف سيفه ،

---

(١) كان كاتون من دعاة الحرية والمناضلين فى سبيلها ، وحينما انتصر يوليوس قيصر فى فرسال وتايسوس ، قتل نفسه بسيفه فى مدينة اتيكا (أثينا) عام ٤٦ قبل الميلاد ، وكان فى حياته وفى مماته نموذجاً صادقاً لمذهب الرواقيين (المترجم)

فابق كما أنت يا سليل الرومان . واحتفظ بكبريائك : [يضع قنينة الأفيون وسط الخوان]

المشهد الثاني

شاترتون — الصديق

الصديق : [يلقى نظرة على القنينة ويتناولها] إلهى !

شاترتون : ماذا ؟

الصديق : إننى عليم بهذا السائل ، فهو يحوى مالا يقل عن ستين حبة من جوهر الأفيون . ثق أنه سيحملك إلى آفاق نشوة تستعذبها بادئ الأمر كشاعر ، ثم لا يلبث أن يصيبك هذيان فسبات لذيذ عميق لا تغشاه الرؤى ! لعلك انفردت بنفسك طويلا ياشاترتون؟

[يضع الصديق القنينة على الخوان ، فيستعيدها شاترتون خلسة]

شاترتون : وإذا كنت أتوق إلى الوحدة الأبدية ، أوليس ذلك من حقى ؟

الصديق : [يجلس على حافة الفراش ، بينما يظل شاترتون واقفاً وعيناه الجامدتان تشيع منهما نظرة شرسة] إن الملحدين كانوا يرددون قولتك .

شاترتون : من لى بمن يمنحنى ساعة هناءة فأعود بعدها

إلى حظيرة الإيمان ! إن ما تشفق منه ، يسميه الرواقيون بالمخرج [1] السليم !

الصديق : هذا صحيح . وكانوا يقولون أيضاً : مالم تربط المرء بالحياة أسباب قوية فإنه قد يعزف عنها لأوهى الأسباب . على أنه ينبغى ألا يغرب عن أذهاننا أن المقادير قُلَّب لاتدوم على حال واحدة ، وفى استطاعتها أن تصنع الكثير ، وإذا كان بيدها ما تفعله فهو للأحياء وحدهم .

شاترتون : ولكنها كذلك لاتقدر على شىء لميت ! وإنى أرى أن المقادير تأتى بالشر أكثر مما تأتى بالخير ، ومن ثم فلا جناح علينا إذا ولَّينا منها فرارا !

الصديق : الحق معك فيما تقول ، وإن كان يتصف بشىء من الجبن ، ألا إن غروبك عنا لتتوارى فى حفرة كبيرة تحت حجر ضخم ، هلعا من المقادير ، لهو الجبن بعينه !

شاترتون : أتعرف كثيراً من الجبناء قتلوا أنفسهم ؟

الصديق : كفى « بنيرون » مثلا !

---

(١) كان بعض الفلاسفة الرواقيين يحبذون الانتحار ، ويطلقون عليه المخرج السليم (المترجم)

شاترتون : وهذا أيضاً لا أحسبه جبانا ، فإن الأمم لا تولى محبتها الجبناء ، وقد كان نيرون يحظى دون سائر أباطرة روما بشعبية ضخمة .

الصديق : هذا إطراء لتقدير الجماهير ، على أننى لن أقف فى وجهك البتة ، حبذا لو تشبثت بما حزمت عليه أمرك ، فذلك ما يفعم غرماءك فرحة وشماتة . سيجدون فى أسلوبك اللعين فى الخلاص معيناً لا ينضب للتسرية عن الجماهير بفكاهات لطيفة عن قصة موتك ، وهكذا تيسر لهم ما عجزوا عن إدراكه منك فى حياتك ، إنك يا بنى تمحو نفسك بنفسك ، وإنك لتحسن صنعاً لو تركت لهم نصيبك من هذه العظمة التى تتهالكون جميعاً على قضمها ، وإن كانت لاتسمن ولا تغنى من جوع ، وسيكون ذلك مكرمة منك دون ريب !

شاترتون : إنك تضفى علىّ من آلاء المجد ما يزيد على حظى منه . من تراه يعرف اسمى ؟

الصديق : [يحدث نفسه] ما زال هذا الوتر يؤثر فى

نفسه . لنرى ما نستطيع أن نعزفه عليه !
[إلى شاترتون] إن الناس يعرفون اسماك بقدر ما أردته خافياً عنهم .

شاترتون : أحقـاً تقول ؟ يا لله . هـذا ما يثلج صدرى ، ولسوف يرددون اسمى بمزيد من الحرية بعد ما ينحسر عن الدنيا ظلى !

الصديق : [يحدث نفسه] إن جميع السبل تسلكه إلى تلك الفكرة التى سلكت عليه أمره .
[بصوت مرتفع] خبرّنى ، خيلّ إلىّ هذا الصباح أنك تؤمل شيئاً ما من رسالة بعثت بها ؟

شاترتون : نعم . كنت قد بعثت بكتاب إلى سيادة العمدة اللورد بيكفورد . لقد كان يعرف أبى حق المعرفة ، وكثيراً ما عرض علىّ حمايته ، فكنت أعزف عنها دائماً ، لأننى أكره أن أغدو مولى لأحد . كنت أركن إلى الفكر لأعيش ، فياله من خبل ! لقد راحت الأفكار بالأمس جميعاً ، ولم تبق سوى فكرة واحدة ، هى التماس من ألوذ بساحته !

الصديق : لقد أحسنت صنعا بالتجائك إلى السيد

بيكفورد . فهو بحق خير رجالات لندن فهما وفضلا . ولكن ، لِمَ أعرضت عن موازرته لك من قبل ؟

شاترتون : كفانى ماجرته علىّ رؤية الناس من ويلات .

الصديق : وماذا يضيرك ؟ جرب نصيبك من رؤية العقلاء بعد إذ باوت رؤية المجانين !

شاترتون : ولِمَ المهل ؟ لقد كتب على حواريىّ الخيال أن تشد جسومهم على الصليب بمسمارين هما السخرية والشقاء . فلِمَ تودّ أن ينهش لحمى مسمار آخر هو الندم على إذ لال النفس بغير طائل ؟ ألا إنه لامناص من أن أسلك « المخرج السليم » فى الغروب عن الدنيا !

الصديق : [ناهضاً] ليغفر الله لى ما أقدم عليه ! أى شاترتون ، إنى شيخ من أطهر طائفة فى جمهورية المسيح . لقد أنفقت العمر مع رفاق فى التأمل والصلاة وصالح الأعمال . سأقول لك باسم الله كلمة حق ، واعلم أنى إذ أفضى إليك بتلك الكلمة ، إنما ألطخ فى سبيل إنقاذك بياض شعرى ! لك إن شئت أن تزهق روحك ، ولكن ليس من حقك

أن تزهق روحين ! إن هناك نفسا تعلقت بنفسك ، نفساً جذبها سوء طالعك ، كما تجذب الماسة المشعة إلى عود القش كما يقول الاسكتلنديون . فلئن قضيت فستقضى هى أيضاً أسوة بك ، ثم تمضى وحالها كحالك ، على كاهلها إثمها ، فلا تصبح أهلا لجوار الله الأبدى ! أى شاترتون ! لك أن ترتاب فى خلود النفس ، أما هى فلا . ستحاسب أنت حساباً هينا لقاء ما عانيت من صنوف اليأس والشقاء ، ومن ثم فلك أن تأمل فى مغفرة من الله ، أما هى فلا ، لأنها كانت بربها مؤمنة وبعيشها راضية . أيها الشاب ! إنى أجثو أمامك وأسألك الرحمة بها ، فهى بمثابة ابنتى فى هذه الحياة الدنيا !

شاترتون : يا إلهى ! صديقى ، أبى ، ماذا تعنى بقولك ؟ أصحيح ؟ .. انهض ناشدتك الله ، إن جثوك يخجلنى . أصحيح ؟ . . . .

الصديق : حنانيك يا ولدى ! فإنك إن مت فستموت بدورها .

شاترتون : ولكن من هى ؟

الصديق : لأنها واهنة الجسم والنفس ، ولكنها شديدة الحس .

شاترتون : سمِّها ! يا إلهى ! هل كنت أجرؤ على الاعتقاد ! ...

الصديق : [ينهض] إذا أفضيت لها يوما بهذا السر كنت خائنا للأمانة ، وسوف لا تكون بك حاجة إلى الانتحار ؛ لأنى سأجهز عليك بيدى

شاترتون : أهى إذن ... ؟

الصديق : نعم . هى بعينها . زوج صديقى القديم ، زوج مضيفك ، أم الطفلين الجميلين !

شاترتون : كيتى بل .

الصديق : إنها تهيم بك أيها الشاب ! أما زلت مصراً على الانتحار .

شاترتون : [يرتمى بين أحضان الصديق] لهف نفسى ! ما عدت قادراً على الحياة ، ولا مستطيعا الموت !

الصديق : [فى قوة وحزم] لا ، بل ينبغى لك أن تعيش وأن تخلد إلى الصمت وتصلى لله

المشهد الثالث

قاعة الدار

كيتى بل — الصديق

كيتى بل : [تنسل وحدها من المخدع وتتطلع فى القاعة] ليس بالقاعة أحد ! هلما يا طفلىّ ! إنما يجمل الخفاء فى الإحسان . اذهبا إليه مسرعين واحملا إليه . . . هأنذا [إلى الصديق] هأنذا أعود أيها الصديق . أعود لأستمع إلى كلمك. [إلى طفليها] احملا إليه جميع فاكهتكما ، ولا تذكرا له أنى بعثت بكما إليه ! اصعدا إليه بغير صخب . حسناً ، حسنا .

[يحمل الطفلان السلة ثم يرقيان السلم فى خفة وحينما يدلفان إلى غرفة شاترتون تخاطب الصديق وهو يدخل عليها] .

خبرنى يا صديقى . أتظن أن العمدة يبسط له يد العون ؟ . إنى مستجيبة لكل ما تشير به علىّ !

الصديق : نعم . وعما قريب سيغدو انتقاله إلى دار أخرى أمراً محتماً ، وربما كان ذلك خارج مدينة لندن !

كيتى بل : فليبارك الله منزلا يفىء عليه سعادة لم تتح له فى منزلى ! وحسبى أن يعيش ، فإن حياته غاية منای .

الصديق : لن أفاجئه الآن بهذا القرار ، بل سأمهد له شيئاً فشيئاً .

كيتى بل : [مشفقة من موافقة الصديق] إن شئت حدثته بنفسى فى ذلك !

الصديق : هذا موضوع سابق لأوانه .

كيتى بل : ولكن ، لِمَ لا ؟ والأمر كما تقول لا يعدو مجرد عادة ألفها وسيقلع عنها !

الصديق : لا شك أن شاترتون غير مدنى بطبعه . هذا فضلا عن أن الأدباء لا يولعون إلا بكتاباتهم ، ومن ثم فصاحبنا لا يتعلق بأحد ولا يستهويه أحد ! ومع كل فالأمر سابق لأوانه .

كيتى بل : وكيف لم يحن الوقت ، بينما تعتقد أن الخطر يكمن فى وجوده بيننا ؟

الصديق : نعم . ذلك ما أعتقده ، وما رجعت عن اعتقادى .

كيتى بل : وعلى أية حال إذا كان الأمر ملحا ، فأنا على استعداد لأحدثه فيه الآن وفى هذا المكان .

الصديق : كلا ، كلا ، وإلا خسرنا كل شىء .

كيتى بل : [مغتبطة النفس راضية] لعلك تقرنى ياسيدى إن هو ظل بين ظهرانينا ألاّ أعامله بجفوة ، فأحجى بنا أن نبذل مافى الوسع لنخفف من تباريح بأسائه . لقد بعثتُ إليه بصغيرىّ ليؤنسا وحشته ، فأصرا على أن يحملا إليه طعامهما وفاكهتهما ، وأنا فى حيرة من أمرى ، أترانى أتيت شيئاً نكرا يصمنى أو يصم طفلى ؟ [يجلس الصديق وينتحى بنفسه ليكفكف دمعة] قيل إنه ألّف كتبا رائعة ، فهل قرأت كتاباته ؟

الصديق : [مصطنعاً قلة الاكتراث] أجل ، وهو عبقرى فذ .

كيتى بل : فى هذه السن المبكرة ، يا لله ! أهذا معقول ؟ آه ، إنك ضننت علىّ بجوابك ، ولست معك فى ذلك . إننى أعى جميع كلمك ، ولأضربنّ لك مثلاً بهذا الصباح ، ألم تقل لى فى مكاننا هذا « إن إعادة هدية قدّمها بائس فقير هو فعل ينطوى على الحط من شأنه ، وإشعاره بمبلغ بؤسه »؟ ولذا كنت موقنة بأنك لم تعد إليه الإنجيل . أليس كذلك ؟ تكلم ، ناشدتك الله !

الصديق : [يناولها الإنجيل بعدما جعلها تنتظر فترة] هاك الإنجيل يا ابنتى ، خذيه كما لو كنت أنا الذى

أقدمه لك، ولا جناح عليك فى أن تحتفظى به .

كيتى بل : [تجلس بجوار قدميه كما يفعل الأطفال حين يلتمسون الصفح] أى صديقى . أى أبى ، إن طيبتك قد تتخذ أحياناً طابع القسوة ، ولكنها على الدوام خير طيبة وأفضلها . إنك تسمو علينا بأناتك وحكمتك ! قد تحس عند مواطئ قدميك عواصفنا الضئيلة القدر ، تلك الزوابع التى لا تكترث لها ولا تعرها التفاتاً ... ومع ذلك تشاطرنا ويلاتها دون أن يكون لك دخل فيها ، وتألم من أحداثها بوحى من روحك السمحة وحسك المرهف . ثم تنثر من فيك بعض الكلم ، وسرعان ما تنقشع الغيوم . وتصفو النفوس ، وتتوارى الدموع ، وتشيع البسمات . لأنك شئت لنا أن نبتسم .

الصديق : [يقبلها فى جبينها] أى ابنتى ! أى ابنتى العزيزة ! إننى معك ، على الأقل ، لا آسف على شىء . [شخص يتحدث] أسمع قادماً . لعله لا يكون واحداً من صحابه . يا لله . إنه تالبوت . لقد كنت واثقاً من قدومه .

[يسمع نفير الصيد]

المشهد الرابع

الأشخاص أنفسهم — لورد تالبوت — چون بل

لورد تالبوت : نعم ، نعم ، سأذهب للحاق بهم جميعاً ، وليقضوا وقتاً سعيد ! لعمرى إن النفس لمنصرمة عن لهوهم . لقد زهدتهم فدعهم يتناولون العشاء دونى . لقد تسليت كثيراً بمشاهدتهم يتحطمون فى محاولتهم اقتفاء أثرى . أما الآن ، فقد سئمت هذه اللعبة . تعال يا سيد بل ، فلى معك حديث . إنك لم تحظنى خبراً بما يقض مضجع صديقى شاترتون من هم وعوز .

چون بل : [إلى زوجته كيتى بل] دعينـــا وحدنا برهة يا سيدتى . [تنسحب كيتى بل بطيئة إلى مخدعها] أما عن همومه ياسيدى اللورد ، فإننى لم ألحظها ، وأما عوزه ، فإننى أعلم أنه لا يدين لنا بشىء .

لورد تالبوت : يا للسماء ! وكيف كان ذلك ؟ آه لو علمت . والحديث لك أيضاً أيها الصديق الصالح . آه لو علمتما ما نمى إلى سمعى منذ هنيهة !

اعلما قبل شيء أن قريضه الرائع لم يطعمه كسرة خبز . وتفسير ذلك هين بسيط ، فهو قريض أولا ، وقريض رائع ثانياً ، وهذا أمر طبعى . ثم يأتى بعد ذلك . دعىّ من أدعياء الأدب ، وغد حقير تافه ، فينشر فرية شنيعة — أسأل الله أن يظل صديقى جاهلا بها — إذ يزعم ما يثبت أن مجموعة قصائد هارولد ، وكذلك سائر أشعار شاترتون منتحلة وليست من نظمه ! أما أنا فأعترف بأن ذلك الشعر جميعه له ، وقد رأيته يصوغه بجوارى هنالك بالأمس القريب ، وهو فى غض الإهاب . نعم سأشهد بذلك ، وأنشر به بياناً مذيلا بتوقيع تالبوت .

الصديق : هذا فضل منك أيها الشاب .

اورد تالبوت : مهلا ، مهلا ، فليس هذا كل ما فى الأمر . أما رأيتما رجلا يتردد على الدار يدعى « سكيرنر » ؟

چون بل : أجل ، أجل أعرفه . إنه من الملاك الأثرياء ، وله عدة منازل فى المدينة .

لورد تالبوت : هذا صحيح .

چون بل : وقد جاءنا بالأمس .

لورد تالبوت : حسنا . فقد جاء يفتش عنه لكى يقبض عليه ، وفاء لإيجار حقير ، دراهم معدودات ، وهو من يملك ملايين الجنيهات . أما شاترتون . . آه ، يا لهول القصة ! إنها وصمة عار وشنار فى جبين الدولة ، ومن ثم فإننى أود لو أستطيع أن أرويها لكم همساً كيلا تصل حتى إلى مسمع الهواء ! اقتربا منى ، أما شاترتون ، فلكى يتمكن من مغادرة منزل هذا الثرى عمد إلى تحرير صك أمهره بتوقيعه . أواه لقد قرأته بنفسى ، وقد تعهد فيه بالوفاء بدينه فى يوم معلوم أوشكنا عليه ، وإذا مات خلال المهلة المحددة فى الصك ، فإنه يبيع لمدرسة الطب والجراحة ، شيئاً لا يجرؤ إنسان على ذكره ، يبيع جثته وفاء لدينه . ويحتفظ ذو الثراء العريض بهذا الصك !

الصديق : يا للشقاء ! يا لمنتهى الشقاء !

لورد تالبوت : لا عليك من التفكير فى هذا الأمر ، فإننى أبذل كل شىء لأخرجه من مأزقه ، ولكن هل من سبيل إلى راحة نفسه ؟

الصديق : وعزة نفســه ، هل غاب عنك أمرها يا صديقى ؟

لورد تالبوت : رويدك يا سيدى ، فأنا أعرفه من قبلك ! أريد رؤيته ، وإنى عليم بما ينبغى أن يقال له . ينبغى أن نقسره على الاهتمام بمستقبله ... على أن هناك شيئاً أود استدراكه .

چون بل : يا للشيطان ! يا للشيطان ! إنها لقصة مزعجة . لقد ظننته رجلا فاضلا بمعنى الكلمة ، عندما رأيته وثيق الصلة بك ياسيدى اللورد ؛ ولكن ما سمعته الآن قد يسفر عن فضيحة فى دارى . أقولها كلمة صريحة ياسيدى اللورد ، أود أن تخطره بأننى لا أسمح ببقائه ها هنا أكثر من شهر .

لورد تالبوت : [يضحك بمرارة] لندع الكلام فى هــذا الموضوع ياسيدى ، وإنى آمل — إذا ارتضى الإقامة عندى — أن يجد من دارى عوضاً عن دارك .

كيتى بل : [تعود فى حياء وخجل] قبل أن يغادرنا سيدى اللورد ، أريد أن أسأله أمراً ، إذا أذن زوجى .

چون بل : [يتمشى فجأة فى أقصى القاعة] لا حاجة بك إلى

إذن منى . تحدثى كما يروق لك .

كيتى بل : هل يعرف سيدى اللورد ، السيد بيكفورد عمدة لندن ؟

لورد تالبوت : حق المعرفة يا سيدتى ، وأعتقد فوق ذلك أننا ذوو قربى . إننى ألقاه كلما رأيت أنه لن يدركنى الملل منه ، أى مرة فى العام . إنه يذكرنى دائماً بأننى غارق فى الدين والرأى عندى أنه غبىّ ؛ ولكنه يحظى بصفة عامة بالتجلة والتقدير .

كيتى بل : لقد أخبرنى السيد الدكتور [1] أنه يفيض حكمة وحباً للخير .

لورد تالبوت : الحق يقال — ونحن بصدد حديث جاد — إنه أشرف رجل فى الممالك الثلاث [2] فإذا كنت تبغين منه شيئاً ذهبت للقائه هذا المساء .

كيتى بل : أظن أن بين ظهرانينا من له مسألة عنده ثم ..

[هنا يهبط شارتون من غرفته وبصحبته الطفلان]

چون بل : ماذا تعنين بحديثك ؟ أجننتِ ؟

كيتى بل : [تحيى لتنصرف] لا شىء سوى مايرضيك .

---

(١) تشير إلى الصديق .

(٢) إنجلترا وأسكتلندا وإيرلندا .

لورد تالبوت : دعها تتكلم بحق الشيطان !

الصديق : إن الأمل الوحيد الباقى لشاترتون معقود على هذه الحماية .

لورد تالبوت : أبشأنه كل ما ذكر ؟ سأذهب من فورى إلى العمدة .

چون بل : [إلى زوجه] كيف تسنى لك معرفة دقائق أموره ؟

الصديق : أنا الذى أطلعتها عليها :

چون بل : [إلى زوجه كيتى] إياك !

كيتى بل : حنانيك يا سيدى ! ، هدئ من سورة غضبك فلسنا وحدنا !

چون بل : إياك والحديث عن هذا الشاب .

[وهنا يتجه شاترتون صوب المدفأة بعدما أسلم الطفلين إلى والدتهما]

كيتى بل : أمرك مطاع ياسيدى .

چون بل : ها هوذا صديقك ياسيدى اللورد . لعله يطلعك على ذات نفسه !

المشهد الخامس

شاترتون — لورد تالبوت — الصديق — چون بل — كيتى بل

[يبدو على شاترتون أمارات طمأنينة تقرب من السعادة . يلقى ببعض مخطوطاته على المقعد]

لورد تالبوت : توم ، لقد عدتُ لأسدى إليك معروفاً هلا أذنت لى !

شاترتون : [يتحدث بصوت عذب كصوت الأطفال ولا ينقطع عن النظر إلى كيتى بل خلال المشهد] إنى مستسلم ياچورج ، لكل ماتشاءون . أكاد أسلم بكل شئ .

لورد تالبوت : إن الأمر يتعلق بمنحتك الأليمة مع هذا اللص سكيرنر . إنه يريد أن يُلقى عليك القبض غدا .

شاترتون : لم أكن أعلم ذلك ، ولكنه على حق .

چون بل : [إلى الصديق] إن سيدى اللورد يبالغ فى العطف عليه ، بينما هو ساذر فى تعاليه وكبره

لورد تالبوت : أتقول إنه على حق .

شاترتون : هو على حق بمقتضى القانون . فقد حل الأجل بالأمس ، وكان لزاماً علىّ الوفاء بدينى بثمن مخطوطة شعرية لم تكتمل بعد .

كنت قد وقعت عهداً بذلك ، فإذا كانت الأرزاء قد تحالفت علىّ ، ولم يحضرنى الإلهام فى الموعد المعين فذلك أمر لايعنيه فى شىء . نعم ، ما كان علىّ أن أعتمد على قدرتى إلى هذا الحد ، وأحسب موعد هبوط إلهة الشعر علىّ وانصرافها ، كما يحسب زمن سباق الخيول . لقد أسأت إلى حرمة نفسى الخالدة ، فأجرتها بالساعة وبعتها ، ومن ثمّ فالذنب ذنبى وأستحق الجزاء .

الصديق : [إلى كيتى] أراهن على أنهم حسبوه مجنونا إن مداركهم لاترقى إلى فهم ماذهب إليه

لورد تالبوت : [يضحك وقد أحس خدشاً فى شعوره] كذا ! لعل ما يدعوك إلى الدفاع عنه هو خشيتك من الاتفاق معى فى الرأى .

چون بل : هذا صحيح غاية الصحة . فإنه يهدف إلى المخالفة .

شاترتون : كلا ! بل اعتقد الآن أن الناس جميعاً على صواب ماعدا الشعراء . إن الشعر مرض يصيب المخ ، وإنى لا أتحدث عن نفسى ، فقد عوفيتُ منه .

الصديق : [إلى كيتى] لا أحب له أن يقول ماقال .

شاترتون : لن أكتب ماحييت بيتا واحداً من الشعر والله على ما أقول شهيد . ومهما جد من أحداث فلن أتناولها بقلمى .

الصديق : [وهو لا يغادره بنظراته] تبًّا له ! إنه يهوى مرة أخرى .

لورد تالبوت : أصحيح أنك عقدت رجاءك على ابن عمى العجوز السيد بيكفورد ؟ لقد دهشت لذلك وكان أولى بك أن تعتمد علىّ !

شاترتون : إن السيد بيكفورد فى نظرى هو الحكومة والحكومة هى انجلترا ، ومن ثمّ فإنى أعقد الرجاء على بلادى ياسيدى اللورد

لورد تالبوت : وسأحدثه بالرغم مما ذكرت بكل ماتريد .

چون بل : أكاد لا أراه جديراً بهذا الفضل

الصديق : حسنا . هاكم التنافس على تولى حمايته . والرأى عندى أن اللورد العجوز أقدر عليها من اللورد الشاب ، ولعلنا نصيب من ذلك غنما . [يسمع ازلاق عجلات على الطريق المرصوف]

كيتى بل : يخيل إلى أننى أسمع ضجيج عربة

المشهد السادس

الأشخاص أنفسهم — السيد بيكفورد

[يهبط اللوردات الشبان وهم فى رداء الصيد ومناشفهم فى يدهم ليشاهدوا العمدة . يدلف إلى القاعة ستة من الخدم يحملون المشاعل ويقفون صفاً مرصوصاً إعلاناً عن وصول السيد العمدة]

كيتى بل : يا للسعادة ويا للفرحة ! إن سيدى اللورد العمدة قد سعى بنفسه إلينا من أجل السيد شاترتون . راشيل ! طفلى ! عانقـانى !

[تهرع إليهما وتقبلهما بوله]

چون بل : تعترى النساء نوبات جنون يتعذر على المرء تفسيرها .

الصديق : [على حدة] إن الأم تمنح طفلها قبلة العاشقة دون أن تدرى !

السيد بيكفورد : [يتحدث بصوت عال ويجلس فى تثاقل وهيبة على مقعد كبير] آه ، حسناً . أرى جميع من أبحث عنهم ملتئمين فى صعيد واحد . چون بل . أى صديقى المخلص ، يخيل لى أنك تحيا فى بيتك حياة لينة مترفة ، فإنى أرى وجوها ، مرحة توثر الصخب

والفوضى على العقل — ولكن ماذا أقول ؟
إنها طبيعة الشباب !

چون بل : إنه لكرم منكم ياصاحب السعادة أن تتفضلوا بتشريف دارى بزيارتكم للمرة الثانية .

السيد بيكفورد : نعم والله يا صديقى بل . إنى أدخل بيتك للمرة الثانيـــة . آه .. ها هما الطفلان الجميلان . أجل إنها المرة الثانية ، وكانت زيارتى الأولى لتهنئتك على المبنى الجميل لمصنعك ، واليوم أرى دارك الجديدة هذه أروع من ذى قبل . إن زوجتك الحسناء هى التى تقوم على شئونها ؟ هذا عظيم ! ما لى أراك صامتاً لا تقول شيئاً يا ابن العم تالبوت ؟ لعلى أزعجتك فقد كنت تصخب مع رفاقك ، أليس كذلك ؟ ستظل دائماً كعهدى بك يا چورچ . ولكن ، تلك طبيعة الشباب !

لورد تالبوت : لاتكترث بأمرى يا عزيزى اللورد .

لورد لودردال : ذلك ما نردده على مسامعه كل يوم ياسيدى اللورد .

السيد بيكفورد : وأنت أيضـــاً يا لودردال ، وأنت يا كنجستون ، ألستما بصحبته دائماً ولياليكم

مسرح للغناء والشراب والميسر ؟ ستكون العاقبة وخيمة . ولكن لا شأن لى بكم ، فلكل امرئ حريته المطلقة فى إنفاق ثروته كما يحلو له . خبرنى يا چون بل ، ألديك شاب يدعى شاترتون ، وهو من قدمت بنفسى من أجله ؟

شاترتون : هأنذا يا سيدى اللورد . أنا الذى كتبت إليك .

السيد بيكفورد : أهو أنت يا عزيزى ؟ ادنُ منى لأرى وجهك . لقد عرفت أباك رجلا جديراً بكل تقدير . كان جندياً فقيراً ، ولكنه استطاع أن يشق طريقه ببسالة . آه ، أأنت من يدعى توماس شاترتون ؟ إنك تلهو بقرض الشعر يا صديقى الصغير ، وهذا أمر جميل لمرة واحدة ، ولكن لا ينبغى المضى فيه . لعمرى ليس منا من لم تستهوه تلك الزخارف . لقد نظمت كثيراً من الشعر فى ربيع حياتى ، وأقسم ما تغنى بالحسان ليتلتون أو سويفت أو ويلك بشعر يفوق شعرى أناقة ومجونا .

شاترتون : لا يخالجنى فى ذلك شك يا سيدى اللورد .

السيد بيكفورد : غير أنى لم أكن أخصص للقريض سوى الوقت الضائع ، فقد وعيت جيداً ما قاله فى هذا الصدد بن جنسون : إن أجمل عذارى الشعر لا تنهض بقوت صاحبها ، ومن ثم يجدر بنا أن نتخذهن خليلات ، ولا نجعل منهن قط زوجات [يضحك لودر دال وكنجستون واللوردات الآخرون]

لورد لودردال : لله درك يا سيدى اللورد ! إن ما قلته هو الحق بعينه .

الصديق : [على حدة] إنه يروم هلاكه وئيداً .

شاترتون : ذلك أصدق ما قيل ، وإنى واعيه اليوم يا سيدى اللورد .

السيد بيكفورد : إن قصتك قصة آلاف من الشباب لم يقدروا على شىء سوى هذا الشعر اللعين . نبئنى ما جدوى الشعر إنى أحدثك كوالد ، فيم ينفع الشعر ، لعمرى إنه لخليق بالمواطن الصالح أن يكون نافعا لبلاده . حدثنى قليلا عن إدراكك لواجباتنا جميعا كمواطنين .

شاترتون : [على حدة] من أجلها أتجرع الكأس حتى الثمالة .

[بصوت مرتفع] أعتقد أنى أدركها ياسيدى

اللورد — إنى أرى بريطانيا سفينة عظيمة فقد اتخذت جزيرتنا شكل سفينة يتجه مقدمها إلى الشمال — تلقى مراسيها وسط البحار لتنيف على اليابسة وتخرج من جنباتها على الدوام سفنا أخرى على صورتها تنطلق لتمثيلها على كافة سواحل المعمورة ، أما مهامنا فنضطلع بها جميعاً على ظهر السفينة الكبرى ، فالملك واللوردات والنواب فى مقصورتهم يتولون دفتها وأعينهم على بيت الإبرة . أما نحن سواد الأمة فعلينا مسك الحبال وتسلق الصاريات ونشر الأشرعة وتعبئة المدافع . ومن ثم فنحن جميعاً أجنادها ، وليس فينا عديم المنفعة فى مجرى سفينتنا المجيدة .

السيد بيكفورد : لا بأس ! لا بأس ! وإن كان مايزال يتشبث بأسلوب الشعر . على أننا إذا سلمنا جدلا برأيك فسترى أنى ما زلت على صواب ، فأى عمل هذا الذى يستطيع أن ينهض به الشاعر فى حركة السفينة ، قل لى بربك !

شاترتون : إنه يقرأ فى الكواكب معالم الطريق الذى يهدينا إليه أصبع الله .

لورد تالبوت : ما قولك فى هذا ياسيدى اللورد أتخطئ رأيه والمرشد لامراء فى نفعه

السيد بيكفورد : هذا خيال ياعزيزى ، أو هو جنون ، فالخيال والجنون سواء . . . . . إنك لا تصلح لشىء ، وما صيّرك إلى تلك الحال سوى هذا اللغو الفارغ لدى أخبار تتصل بك ، وأود أن أحدثك عنها بصراحة... ثم ...

لورد تالبوت : إنه صديقى يا سيد اللورد ، وإنك لتطوق عنقى بفضلك إذا أحسنت معاملته .

السيد بيكفورد : أيعنيك الأمر يا چورچ ؟ حسناً ستكون راضياً مسروراً . لقد فعلت شيئاً من أجل وليّك بالرغم من بحث من يدعى « بال » عنه ، يخيل إلىّ أن شاترتون لا يعلم شيئاً عن اكتشاف حيله الصغيرة ، وما يسميه دواوين شعره ، غير أنها حيل بريئة على كل حال نغتفرها له عن طيب خاطر ! إن صحيفة « الرفعة » من أفضل الصحف ، ولقد أتيتك بها لعلك ترجع عن غيك ، وستجد طيها رسالة تحمل عروضى . لقد منحتك راتباً مائة جنيه فى السنة . لاتتصنع

الازدراء يا بنى بحق الشيطان ، فلم يخرج أبوك من ضلع آدم ، ولم يكن أخا للملك ! هذا إلى أنك فى الواقع لا تصلح لشىء سوى ما أعرضه عليك . إنها لبداية ، سوف تلازمنى دائماً وسأراقبك عن كثب .

[كيتى بل تتوسل بنظرة إلى شاترتون ألا يرفض ، وكانت تحذر تردده]

شاترتون : [يتردد برهة ثم يقول بعد ما تطلع إلى وجه كيتى] أوافق على جميع ما تقترحه يا سيدى اللورد .

لورد لودردال : يا لك من إنسان كريم يا سيدى اللورد !

چون بل : هل لك أن تتفضل فتتصدر مائدة العشاء ؟

كيتى بل : [إلى ابنتها] هيا اذهبى فقبلى يده .

الصديق : [يشد على يد شاترتون] حسناً يا صديقى ، لقد كنت شجاعاً

لورد تالبوت : كنت واثقاً من ابن عمى البدين توم . لقد صنعت الكثير ليصبح على خير حال .

السيد بيكفورد : چون بل ، اذهب بى أيها السيد المحترم إلى حيث يتناول هؤلاء الشبان المجانين عشاءهم كى أشهدهم وهم جلوس إلى الخوان . إن ذلك يعيدنى إلى صباى .

لورد تالبوت : أقسم أن الكل مغتبط حتى الصديق — وسواء رجع الفضل إليك أو إلىّ ، فهاكم شاترتون وادع مطمئن النفس ، ومن ثم فقد قضى الأمر .

چون بل : سنسير جميعاً فى صحبة سيدى اللورد . [إلى كيتى بل] أريدك أن تعودى لتحية الضيف . [تتجه إلى مخدعها] .

شاترتون : [إلى الصديق] ألم أفعل كل ما كنت تريد ؟ [إلى السيد بيكفورد بصوت مرتفع] أنا رهين إشارتك يا سيدى بعد لحظات . إن هناك بعض أوراق أود إحراقها .

السيد بيكفورد : حسنا ، حسنا . إنه يبرأ من الشعر . هذا عظيم .

[يخرجون من القاعة]

چون بل : [يعود فجأة إلى زوجه] عودى الآن إلى غرفتك ، ولا تنسى أننى فى انتظارك .

[تتوقف كيتى بل لدى الباب لحظة ، وتتطلع إلى شاترتون فى قلق]

كيتى بل : [على حدة] إلهى ! لِمَ يرغب فى البقاء وحده ؟ [تنصرف مع طفليها حاملة أصغرهما بين ذراعيها]

المشهد السابع

شاترتون [وحده يتمشى]

اذهبوا أيها الرفاق الأخيار — ألا إنه لعجيب غاية العجب ان يتبدل مصيرى هكذا فجأة ، وإنه ليشق على الأمان إلى المقادير ، وإن كانت ظواهر الأمور توحى بالطمأنينة ، وهى ما يتوقف عليه سعادتى — تُرى ماذا يعنى هذا الرجل بما ذكره عن حيـّلى ؟ آه ذلك مايردده الناس جميعاً من أنهم حذروا أننى مؤلف ذلك الديوان ، وهو ما اعترفت به لهم ، تلك لعمرى مجاملة سمجة ! وبعد ، تُرى ماذا تكون الوظيفة التى يعرضها على ؟ لعلها وظيفة كتابية ؟ عظيم جداً ! عمل محترم يتيح لى أسباب العيش دون ثمة حاجة إلى الكتابة فى توافه الأمور ابتغاء كسب القوت — سوف يستعيد الصديق راحة نفسه التى عصفتُ بها . أما هى ، كيتى بل ، فسوف لا أقضى عليها إن صح أننى كنت أعمل على القضاء عليها !

ترى أينبغى لى أن أصدق أنها تُكن لى الحب ؟ إن الشك يخالجنى فى هذا الأمر ! ذلك لأن ماسكن بين ضلوعها فاتر وئيد الخفق ، ونفسها العامرة بالأمومة لا تتسع لعشق ! ولكن ، لاعلى من ذلك ، ولعله أكثر خيراً . فقد

حزمت أمرى على أن أنقطع عن رؤيتها ، وإن كان ذلك عندى يعدل الموت ، ولكن من السهل أن يحتجب الجسد ! على أننى أرى ألا تحاط علماً بما قررت ، ولعل الصديق فطن لهذا الأمر فهو يفكر فى كل شىء .

والآن ، لِمَ أعيش ؟ ولمن ؟ ... إننى أعيش كيما تعيش هى ، وهذا حسبى ... مكانك أيتها الأفكار السود ولا تقربينى ! لنقرأ هذا [يقرأ الصحيفة]

« ثبت بالدليل أن المدعو شاترتون لم يؤلف مانسب إليه من كتب ، فهذه القصائد العصماء هى فى الواقع من نظم راهب يدعى (رول) ترجمها بدوره عن راهب آخر يدعى (ترجو) عاش فى القرن العاشر ، وربما تغتفر تلك الخديعة لأن مقترفها تلميذ ، ولكنها قد تتخذ فيما بعد طابعا خطيرا . »

التوقيع

بال

بال ؟ ومن يكون بحق السماء ؟ وبماذا أسأت إليه ؟ من أى حجر انطلقت هذه الرقطاء ؟ ياللهول ! لقد أعدم اسمى وخبا مجدى وضاع شرفى ! — آه ، هاكم القاضى واهب الأرزاق ! لنرى ماذا وهب ! [يفض الرسالة ويقرأها ثم يصيح كمن طعن فى كرامته] أواه ! إنها وظيفة الحاجب الأول فى قصره ! تبًّا لك من بلد ! أيتها الأرض المستخفة بأقدار الناس ، عليك اللعنة إلى يوم الدين ! [يتناول قنينة الأفيون]

أيتها النفس ، لقد بعتك بالأمس ، وهأنذا اليوم أسترجعك بهذا الثمن ! [يتجرع الشراب المميت] .

سيستوفى « سكيرنر » دينه ! ومن ثم فأنا الآن حر من ربقة الناس وند لجميع الناس ، سلاما أيتها الساعة الأولى من دنيا الطمأنينة التى طالما هفت نفسى إليها ! سلاما أيتها الساعة الأخيرة من عمرى وفجر الحياة الخالدة ! وداعا أيها الهوان أيتها الأحقاد ، أيتها السخرية ، أيتها الأعمال المهينة ! وداعا أيتها الشكوك ، أيتها الأحزان ، أيتها المحن ، أيتها الآلام التى حالفت قلبى ! آه ، ما أسعدنى إذ أودعكم ! لعمرى لو أننى كنت على علم بما أستشعره الآن من سعادة لما ترددت هكذا طويلا !

[وهنا ، بعد لحظات تأمل تلوح خلالها على وجهه إشراقة الموت ، يضم يديه ويسترسل] . أيها الموت ! أى ملاك الخلاص ! ما أروع سكينتك ! كنت محقا فى هواك ، ولكنى لم أكن أقوى على الظفر بك — إننى أعلم أن خطاك ستكون وئيدة ولكنها أكيدة ، انظر إلىّ ، أيها الملاك الصارم ، وأنا أنتزع من الناس طراً ما تركت على الأرض من آثار

[يلقى فى النار بجميع أوراقه] اذهبى أيتها الأفكار السامية التى تغنيتُ بها من أجل أولئك المزدرين الجحدة ! تطهرى فى النار ذات اللهب ، ثم اصعدى إلى السماء معى !

[يرفع عينيه إلى السماء ، ويمزق فى نشوة وخشوع قصائده ، وكأنه عابد يقدم للإله قربانه]

يستسلمن لحبهم ، فهم لا يضمرون — بصريح العبارة — حبًا لأحد ، وإنما فطروا جميعاً على حب الذات . إن عقولهم تحيا على حساب أفئدتهم . فإياك أن تقرئى لهم أو تتطلعى إلى وجوههم . أما أنا فكنت أسوأهم جميعاً !

كيتى بل : يا إلهى ! لماذا تقول : كنتُ ؟

شاترتون : لأننى لا أريد أن أكون شاعراً بعد الآن . لقد مزقت كما ترين جميع أوراقى . إن ما سوف يدركنى قلما يؤثره أحد ، ولكن سنرى ! وداعاً — أصغى إلىّ ، إنك ربة أسرة جذابة ، فهل تحبين صغارك ؟

كيتى بل : أكثر من حبى للحياة !

شاترتون : أحبى إذن حياتك من أجل أولئك الذين وهبتها لهم .

كيتى بل : لهف نفسى ، إننى من أجلهم وحدهم أحب حياتى .

شاترتون : ما من شىء على البسيطة يفوق ذلك جمالا يا كيتى بل ، فإنك — وتلك الملائكة الطهر على ركبتيك — تشبهين الرحمة الإلهية !

كيتى بل : ولكنهم راحلون عنى فى يوم من الأيام !

شاترتون : وخليق ألا يعدل حبهم فى نظرك أى حب آخر ؛ لأنه الحب الحقيقى فى الحياة ، وإنه لحب لا يغشاه اضطراب ولا خوف ، ففى دمهم يجرى دمك ، وفى نفوسهم قبس من نفسك . أحبى صغـــارك ، وصغارك وحدهم ، وليكن هنا الحب أسمى من كل شىء عاهدينى على ذلك !

كيتى بل : يا إلهى ! إن عينيك تفيض بالدمع ، ثم تبتسم !

شاترتون : فلتجنب العناية عينيك الجميلتين موارد البكاء ، ولترصّع بالبسمة الدائمة شفتيك ! أى كيتى ، لا تدعى أى حزن دخيل ينساب إلى أسرتك الهادئة المطمئنة .

كيتى بل : وا أسفاه ! وهل الأمر فى ذلك بيدنا ؟

شاترتون : أجل ! أجل ! فهناك أفكار تتيح لمعتنقها أن يوصد قلبه — سَلِـى الصديق عنها ، وسيوافيك بالكثير منها . والآن ، دعينى أنصرف ، فلا وقت لدىّ . [يسير نحو غرفته]

كيتى بل : يا إلهى ! ما أشد آلامك !

شاترتون : على النقيض يا سيدتى ، فقد برئت من الآلام جميعاً ! لا شىء سوى أن رأسى

يحترق أيتها الطيبة ! إن أذاك لأشدّ قسوة على نفسى من سخائم أعدائى !

كيتى بل : عن أية طيبة تتحدث ؟ أتعنى طيبة قلبك ؟

شاترتون : إن طيبة النساء تغرر بهن دائماً ، وما أتيتِ إلا بوحى من طيبة قلبك — يقيناً إن القوم فى انتظارك فى الطـــابق العلوى ، فماذا تصنعين هنا

كيتى بل : [كاشفة البال ، زائلة البصر] لو كان أهل الأرض جميعاً فى انتظارى فى هذه الساعة فلن أريم من هنا حراكاً ؟

شاترتون : سألحق بك بعد هنيهة . وداعاً ! وداعاً !

كيتى بل : [تستوقفه] ألا تذهب إليهم ؟

شاترتون : سأذهب . سأذهب .

كيتى بل : بل أنت راغب عن الذهاب .

شاترتون : إن هذه الدار يا سيدتى . ملك لك ؟ أما الساعة التى نحن فيها فهى ملك لى !

كيتى بل : وماذا أنت صانع فى هذه الساعة ؟

شاترتون : دعينى يا كيتى . إن للرجال لحظات لا يطيقون فيها الانحناءة أمام قدك ويضفون على أصواتهم رقة من أجلك ! دعيـــنى يا كيتى بل .

كيتى بل : لن أسعد إطلاقاً إذا تركتك على تلك الحال. يا سيدى .

شاترتون : هل أتيت لتعذبينى ؟ أى روح شريرة ساقتك إلىّ ؟

كيتى بل : إنه فزع يتعذر تفسيره !

شاترتون : ستفزعين حقاً إذا اعتزمت البقاء !

كيتى بل : يا إلهى ! أتضمر سوءاً ؟

شاترتون : ألم أحدثك عن أمرى بما فيه الكفاية ؟ لِمَ بقاؤك ها هنا ؟

كيتى بل : ولِمَ ينبغى ألا أكون ها هنا ؟

شاترتون : لأننى أحبك يا كيتى .

كيتى بل : أواه ! إن مصارحتك بمكنون نفسك لتدل على أنك تريد أن تموت !

شاترتون : إننى أملك حق الموت . وهأنذا أجاهر به أمامك ، وأشهد الله على ذلك .

كيتى بل : أما أنا فأجاهر بأن قتل النفس جرم ، فإياك أن تفارقه !

شاترتون : ذلك ما لا مناص منه يا كيتى ، ولا مفرّ لى منه .

كيتى بل : تمهل يوماً فقط لتفكر فى مصير روحك .

شاترتون : ليس هناك ما لم أفكر فيه يا كيتى .

كيتى بل : إذن ساعة واحدة لتصلى !

شاترتون : لم أعد قادراً على الصلاة .

كيتى بل : فليكن ذلك من أجلى ! أتوسل إليك ! إن فى قضائك قضاءً علىّ !

شاترتون : لقد أعلمتك ! ... وفات الأوان .

كيتى بل : وإذا كنت أحبك ؟

شاترتون : لقد جلوت حبك ، ومن أجله آثرت الموت ، ومن أجله قد يغفر الله لى !

كيتى بل : ما صنعت بنفسك إذن ؟

شاترتون : لقد فات الأوان يا كيتى ! إنك تتحدثين إلى ميت !

كيتى بل : [تجثو على ركبتيها وترفع إلى السماء يديها] أيتها القدرة الإلهية ! أدركيه برحمتك .

شاترتون : اذهبى عنى ... وداعا !

كيتى بل : [تهوى على الأرض] لم يعد ذلك فى استطاعتى

شاترتون : وماذا إذن ؟ ... صلّى من أجلى على الأرض وفى السماء !

[يقبلها على جبينها ويصعد الدرج وهو يترنح . يفتح باب غرفته ويخر على الأرض]

كيتى بل : إلهى ! إنك القوى القادر ! [تعثر على القنينة] ما هذا ؟ غفرانك يارب !

المشهد التاسع

كيتى بل — الصديق

الصديق : [مهرولا] ماذا تفعلين هنا ؟ إنك تسعين إلى حتفك !

كيتى بل : [تتكفئ على درج السلم] اصعد بسرعة ! عجّل يا سيدى ! إنه يموت ! خف لإنقاذه لقد حان الوقت .

[بينما الصديق يسعى إلى السلم تتطلع كيتى من خلال الأبواب الزجاجية لعلها تجد من يستطيع النجدة . ولما لم تر أحداً راحت تصعد فى إثر الصديق وقد تملكها الرعب وهى تتصنت إلى الأنين الذى انبعث من غرفة شارترتون]

الصديق : [إلى كيتى بل وهو يرتقى السلم قفزاً] مكانك يا طفلتى ولا تتبعينى !

[يدخل إلى شارترتون ويغلق الباب خلفه . ولو أن للجدران آذاناً لسمعت أنفاس شارترتون المطردة وآيات التشجيع يتلوها الصديق عليه . تصعد كيتى بل وقد أغشى عليها فترتطم فى كل خطوة بسياج الدرج . غير أنها تتحامل على نفسها لتجذب إليها الباب الذى ينفرج بعد لأى . ترى شارترتون وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة على ذراع الصديق ،

فتصرخ من أعماقها ، ثم تنزلق على السياج ، وتهوى إلى أسفل الدرج ، وهى أقرب ما تكون إلى الموتى منها إلى الأحياء . ينادى چون بل زوجه من القاعة المجاورة]

چون بل : كيتى !

[تنهض كيتى بغتة كأنما يحركها لولب]

چون بل : [للمرة الثانية] كيتى ! كيتى !

[تجر ساقيها إلى حيث تجلس لتتلو الإنجيل وتتمتم فى صوت خافت بكلمات لا يسمعها أحد . يجرى إليها طفلاها ويتعلقان بأذيالها]

الصديق : [فى أعلى الدرج] ترى هل شاهدته ميتا ؟ هل شاهدته ؟ [يذهب قريباً منها] ابنتى ! ابنتى !

چون بل : [يدخل القاعة وفى عينيه الشرر . يصعد درجتين من درجات السلم] ماذا تفعل زوجى هنا ؟ أين هو ذلك الشاب ؟ لقد أمرت أن يأتى !

الصديق : بل قل : أن يحمل من هنا . لقد مات .

چون بل : مات ؟

الصديق : أجل . مات فى الربيع الثامن عشر ! لقد بالغتم جميعاً فى الحفاوة به أفتعجبون لرحيله !

چون بل : ولكن ...

الصديق : على رسلك يا سيدى ، فلا تحتمل المرأة

مزيداً من الرعب . [يتطلع إلى كيتى فيجدها تعالج سكرات الموت]

سيدى ، انطلق بطفليها ، أسرع حتى لايشهداها !

[ينتزع الطفلين اللذين تشبثا بقدميها ويسلمهما إلى چون بل ، ثم يحمل الأم بين ذراعيه . يمسك چون بل بصغيريه ، فينتبذ بهما ناحية ، ويظل مشدوهاً بادى الذهول . وبعد لحظات تسلم كيتى الروح بين أحضان الصديق] .

چون بل : [فى رعد] ماذا جرى ؟ كيتى ! كيتى ! ماذا بك ؟ [يكف عن الكلام حينما يرى الصديق راكعاً يصلى]

الصديق : [جاثياً على ركبتيه] تقبّل اللهم فى فردوسك هذين الشهيدين !

[يظل الصديق جاثياً على ركبتيه وعيناه متجهتان نحو السماء حتى يسدل الستار] .

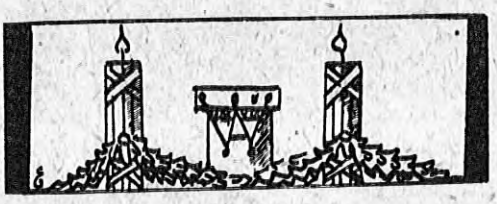

مطابع كوستا تسوماس وشركاه
٥ شارع رقم ٢ من شارع الفجالة بالقاهرة تليفون ٤٧٦١١٨
١٣٠ شارع جمال الدين بالقاهرة تليفون ٥٢٦١٢٩

مطابع كوستا تسوماس ودشركاه
٥ شارع وقف أحمد طلل القاهرة ت ٧٧١١٨
١٣٠ شارع حسون القاهرة ت ٥٢٦٢٩